

القرصان

رواية

حسام أبو سعدة



(1)

راحت "ليزا" تلقى بأعواد الحطب الجاف إلى النيران. الدخان يتصاعد كثيفاً يخنق صدرها. العرق ينفصد منها بغزارة ممزوجاً بالتراب و الملح فيجرحها في ثنايا جسدها المترف الأملس.. تتطاير بقايا الخشب تلسعها فتتنفض و هي تلعن حظها الغابر.. لا بد أن تظل هذه النيران مشتعلة على الدوام، إنها الأمل الوحيد في النجاة حين تلمحها سفينة عابرة أو طائرة. هكذا قال لها أبوها "توني" عندما أشعلها، فراحت ترقب البحر لمدة يومين متتاليين فلم تجد سوى الأمواج المتعاقبة في رتابة و ملل، و لم تجد في السماء سوى الطيور البحرية تلتقط رزقها في هناءة فتحسدها على راحة البال..

التفتت إلى ابنتها "لورا" التي لم يتعد عمرها السبع سنوات. هالها مظهر الصغيرة و هي تجلس على بعد خطوات مستندة إلى صخرة خشنة تراقب الدخان المتصاعد في خوف و قلق، ممزقة الثياب مثل أطفال بلاد المجاعات الذين تشاهد صورهم في المجلات و من خلال شاشات التلفزيون... دخلت إلى الكهف الذي يحتمون به و راحت تعد الساندويتشات و هي تعد و تحصى ما بقى لديهم من طعام هنا أو في القارب، انقبض قلبها عندما اكتشفت أنه قد لا يكفي لمدة يومين في أحسن الأحوال. نادت ابنتها فأنتت الصغيرة بخطوات مترددة تنم عن عدم الشعور بالأمان، إلتهمت الطعام بشراسة ثم سألت:

- ألا يوجد أخبار عن أبي؟

أجابت في حزم:

- لا..

طأطأت الصغيرة رأسها ثم انصرفت إلى الممر الصخري الضيق المؤدى إلى الشاطئ بينما الأم ترقبها في حسرة، لقد ذبل جمالها و غاضت ابتسامتها.. كان البحر جباراً قاسياً حتى أنه لم يرحم صغر سنها.. رأت أباها "جورج" و هو ينزلق من فوق القارب الذي كان يترنح وسط دوامات عنيفة، لم يبد منه سوى رأسه فقط تتقاذفها الأمواج بعيداً إلى بحر لا نهاية له بينما كانت أيدي أمها تعصرها بقوة و عنف... لكنها سمعت في حديث أمها و جدها في اليوم الأول لهم هنا أن أباها يجيد السباحة و من الممكن له أن يسبح حتى يلحق بهم إلى الجزيرة.. تعلققت بالأمل في العثور على أبيها و العودة إلى بيتها، ثم انهارت تماماً عندما رأت جدها بالأمس و هو عائد من أنقاض القارب المحطم...

لقد جرت نحوه تريد إلقاء نفسها في صدره كعادتها، إنها اليوم في أشد الحاجة إلى صدره لعلها تنعم بالأمان المفقود بعد هذه الحادثة التي أطاحت بكيانها، لكنها توقفت فجأة عندما لمحت البندقية معلقة في كتفه الأيمن، ثم تراجعت خطوتين إلى الخلف.. و بدا عليها أنها تذكرت تفاصيل كل ما حدث في العام الماضي...

كانت تلعب و تلهو في حديقة قصر جدها المقام فوق قمة الجبل. تجرى خلف الفراشات، تنتقل بين أحواض الزهور سعيدة بعبيرها و ألوانها الجذابة. تقضى ساعات طويلة فى عش الأرناب البرية التى يرببها جدها، تطلق على كل أرناب اسما خاصا به، تراقبهم و هم يأكلون و يشربون و تمسح بيدها برفق على فرائهم الناعم فى لذة، ثم تجرى خلف أحدهم، تقبض عليه بيدها فتقبله.. فى هذا اليوم بعد أن أمسكت بالأرناب جرت إلى حجرة جدها الحبيب الذى يطاوعها على كل شىء و يدللها فى حنان بالغ، لكنها وجدت الحجرة خالية فراحت تعبت بأناملها الصغيرة فى كل شىء، فتحت الدولاب فعثرت على البندقية، تحاملت على جرها رغم ثقلها و جرت إلى أمها و فى عينيها بريق السعادة بهذه اللعبة الجديدة... رأتها الأم فخرجت منها شهقة مكتومة، تجمد الدم فى عروقها، أى رد فعل قد يربك الصغيرة فتضغط الزناد رغماً عنها.. أتى "تونى" العجوز عندما سمع شهقة ابنته، أخذ السلاح من حفيدته برفق، فانهالت "ليزا" فى لومها و تعنيفها. دافعت عن نفسها فى براءة: أنا لم أفعل شىئاً يستحق كل ذلك، كل الأطفال يلعبون بالبنادق.. حاول "تونى" كثيراً إقناعها بخطورة السلاح بأسلوب هادىء رصين، حاول كثيراً تبسيط المعلومات دون ذكر الكلمات العنيفة مثل الموت أو الدم، لكنها راحت تحاوره و تناقشه فى كل صغيرة و كبيرة.. صرخت "ليزا" غاضبة من العناد، ضحك الجد العجوز قائلاً:
- إنه جيل الكمبيوتر. لا يوجد إلا حل واحد فقط.

اصطحب حفيدته إلى عش الأرناب، صوب البندقية إلى إحداهما ضاغطاً على الزناد، انطلقت الطلقة مدوية و سقط الأرناب الأبيض سريعاً مضرجاً بدمائه. انتفضت الصغيرة فرعاً، و منذ هذا اليوم لم تقرب البندقية مطلقاً، بل لم تقرب حجرة جدها... و عندما رآته حاملاً السلاح بالأمس سألته و هى ترتجف:
- ما الحاجة إلى البندقية الآن؟
خر العجوز على ركبتيه ليكون فى مستوى طولها، حاول أن يضمها إليه فنفرت منه، قال و هو يطوق وجهها البرىء بيديه:
- من أجل الحماية يا صغيرتى.

باتت "لورا" ترتجف طوال الليل، تحلم بأبيها الذى غرق أمام عينيها، تحلم بالأرناب الذى قتله جدها، تحلم بالدخان المتصاعد من النيران، الدخان يتحرك و يتشكل أمامها فى صور مخيفة. استيقظت أثناء الليل أكثر من مرة تصرخ: عفريت، عفريت!... سألتها أمها عن هذا الكابوس الذى يقلق نومها فقالت:
- إنه عفريت أسمر البشرة، طويل ضخم، ممزق الثياب، أشعث الشعر، له لحية كثيفة، فى عينيها بريق مخيف.

مسحت "ليزا" رأسها:
- لا تقلقى، سنعود إلى بيتنا فى خلال يوم أو يومين.
سألت "لورا" فى فزع:
- بدون أبى؟!
قال "تونى" العجوز:

- النار ستسهل عليه الطريق للوصول إلى هنا.

فى الصبأء؁ انصرف "تونى" و هو يؤكء على ابنته و حفيدته على أن تظل النيران مشتعلة على الدوام؁ إنه يحاول إصلاح القارب الذى يرى إصاباتة بسيطة و من السهل إصلاحها؁ بيد أن "ليزا" قد بدأت تشك فى قدراته العقلية الآن!.. أليس هو الذى أصر على الدخول فى هذه المنطقة متابعاً أسراب السمك بالرغم من تحذيرات القبطان المخيفة بأنها منطقة تيارات جارفة لا يستطيع مواجهتها بمثل هذا القارب الصغير.. لكن انصاع القبطان و وافق زوجها "جورج" على كل أوامر "تونى" احتراماً لمكانته الاجتماعية الرفيعة و خوفاً من شخصيته القوية الحادة... ها هو عائداً من أنقاض القارب المحطم يسير بخطوات مترنحة كالكسكارى؁ يحمل عصا فى يده اليمنى و فى يده اليسرى لفافة غريبة! رمتة بنظرة متسائلة فقال و فى عينيه بريق القوة و العظمة رغم التجاعيد الغائرة فى وجهه و شعره الأشيب الخفيف:

- إنه علم بلادنا؁ سأرفعه هنا بجوار النيران.. مجرد العلم كفيل بحمايتنا.

عاونته فى رفع العلم؁ لاحظت ارتجافات يديه بينما مازال بريق عينيه يدل على القوة و العناد.. آثار الجرح القديم فى ذراعه اليمنى أصبحت أكثر عمقاً و قبحاً كلما تقدم به السن. لا يخجل أبداً من هذا التشوه؁ بل يعتبره دليلاً على بطولاته و مغامراته فى عمق الصحراء... اكتشفت فجأة عدم وجود ابنتها؁ فسألت فى قلق:

- أين "لورا"؟

أجاب "تونى" فى هدوء:

- أنا لم أرها منذ أن خرجت فى الصبأء.

تقلص وجه "ليزا" و هى تصرخ:

- كيف؟!... لقد خرجت إليك منذ ساعة تقريباً...

انتفضت تجرى فى كل اتجاه؁ تتعثر فى الصخور الصلدة و الرمال الناعمة؁ تسقط فتهدب تكمل ركضها و هى تصرخ ملتاعة: "لورا... لورا...". تردد الصدى فى جنبات الوادى الضيق المنحصر بين البحر و الجبل؁ فأتى صوت الصغيرة يشق عنان السماء صارخاً: "عفريت.. عفريت.."

جرت نحو الجبل فى لهفة يتبعها "تونى" لاهثاً. عثرا على الصغيرة تتلوى على الأرض؁ جاحظة العينين؁ كل عروق يديها و رقبتها بارزة فى عنف؁ لا يصدر منها سوى حشرات مكتومة.. تلقفتها الأم فى أحضانها تربت على رأسها و هى تبكي بينما قال "تونى" فى تهدج:

- لا يوجد شىء اسمه عفريت.

قالت الصغيرة بصعوبة بالغة:

- بل موجود هنا.

التفت "تونى" يتأمل المكان؁ أرض شاسعة مترامية الأطراف؁ لم يكن أحد يتصور أن تكون الجزيرة بمثل هذا الإتساع؁ المكان محاط بالجبال و الصخور الداكنة من كل ناحية

فيما عدا جهة الغرب فيختفي الجبل ليظهر البحر المترامى.. لا شيء سوى بعض النباتات البرية الخشنة و أصوات البحر تأتي من بعيد، تطلق في السماء بعض الطيور البحرية ترتع في جنتها التي لم يصلها الإنسان بعد.. التفت إلى حفيدته سائلاً:

- لماذا لم تأتي إلى عند القارب؟!

قالت الصغيرة أنها رأت في الطريق خروفاً أبيضاً صغيراً، داعبته فنفر منها، جرت خلفه إلى أن وجدت نفسها هنا فرأت العفريت.. قالت "ليزا" نافذة الصبر:

- أين العفريت؟

تلقتت الصغيرة حولها و هي تلتقط أنفاسها:

- لقد اختفى فجأة.. إنه نفس العفريت الأسمر الأشعث.

ربت "توني" على أكتاف حفيدته قائلاً:

- لا تخشى شيئاً.

تردد الصوت في قوة الرعد بين جنبات الجزيرة:

- "توني" المجنون.. حفاظاً على حياتكم ألق بسلاحك.

ارتجف الجميع و هم يبحثون عن مصدر الصوت في كل اتجاه، أعد "توني" سلاحه فصرخت "لورا" و هي تمسك بيد جدها قائلة: لا داعي للسلاح.. رماها "توني" بنظرة حادة أخرستها، فعاد صوت الرعد يتردد:

- "توني" المجنون، حفاظاً على حياتكم ألق بسلاحك.

أرهف "توني" سمعه، جال في المكان بعينين كالصقر الذي يستعد لاصطياد فريسته، اكتشف جبا ضيقاً بين الصخور، لا بد أن المجرم يختبئ هنا. نظر إلى ابنته و حفيدته فوجدهما ترتجفان في هلع. أعد سلاحه منطلقاً إلى الجب. إنه درس جديد سيلقنه لحفيدته بأهمية السلاح من أجل الحماية، سيصطاد هذا المجرم مثلما يصطاد الفئران و الأرانب. تقدم بخطوات ثابتة قابضاً على سلاحه و هو يتابع المكان بغريزة الصياد المدرب جيداً. ابتسم في سخرية و ثقة، لقد سكتت التهديدات بعد أن عمّر سلاحه و بدأ طريق الهجوم.. ما أن بدأ الصعود على أول صخرة حتى أتاها صراخ ابنته و حفيدته من الخلف.. التفت إليهما فرعاً فوجد ابنته مغشياً عليها بينما حفيدته ترتجف جاحظة العينين، خلفهما رجل ضخم الجثة، أسمر البشرة، أشعث الشعر، له لحية سوداء طويلة، قابض على سكين ضخم، يستعد لذبح ابنته و حفيدته إن لم يلق بسلاحه...

(2)

نسائم البحر تهب من كل مكان حاملة رائحة اليود الذكية. أثار الرطوبة في حوائط الكهف الذى نقشته الطبيعة ببراعة فائقة و بأسلوب جليل يبعث فى النفس الإحساس بالرهبة و الوحشة.. جلست "ليزا" تتأمل الكهف مبهورة الأنفاس، جاحظة العينين فى ذهول.. كيف سمحت لهذا الوحش بمضاجعتها؟!... إنها لم تسمح له، بل هو الذى اغتصبها.. كانت كل عضلات جسدها ترتجف فى إرهاق شديد، رماها بنظراته النارية فسقطت مغشياً عليها من فرط الرعب. لم تشعر بنفسها إلا و هى عارية تماماً بين أحضانه، يطوقها بعضلاته المقتولة و ذراعيه الخشنتين.. بعد أن عبث بجسدها كيفما يحلو له رماها بابتسامة ساخرة ثم طلب منها إعداد الطعام، رفع إصبعه فى وجهها محذراً فى ثبات:
- طعاماً شهياً و إلا!...

لقد صفعها على وجهها بالأمس لأن الطعام لم يرق له. إنه لا يعرف التفاهم إلا من خلال القوة و البطش، و لا يعود إلى هدوئه إلا بعد أن يرى نظرات الخضوع فيمن حوله.. عندما التقوا به منذ يومين استولى على السلاح الوحيد قبل أى شىء، ثم ساقهم أمامه عبر الجبال و الصخور و هو يسير خلفهم مختالاً بقوته و فتوته إلى أن وصلوا إلى أرض واسعة. كانت الكلاب المتوحشة هى أول من استقبلتهم، كادت تفتك بهم لولا صرخة واحدة منه فراحوا يلفون و يدورون حول الغرباء و هم يتشممون رائحتهم بفضول... بدت الأرض كأنها قطعة من الجنة، تحيطها أشجار الكروم و الزيتون فى اتجاه الغرب و تحيطها أشجار التفاح و الموالح من الشمال، يقسم الأرض إلى مربعات مزروعة بالقمح بالإضافة إلى كثير من أنواع الخضراوات. يتوسط المكان طاحونة هوائية تستخرج الماء العذب من باطن الأرض. فى الركن الجنوبي حفرة كبيرة تؤدى إلى البحر حيث يحتفظ بالأسماك لتكون طازجة باستمرار. العصافير تصدح فى نشوة و سعادة بينما ترعى الخراف و الماعز فى هدوء و أمان. فى اتجاه الشرق يقبع الجبل شامخاً، يبدو كوخه المبنى من فروع الأشجار فى حضن الجبل كأنه عش لأحد الصقور الجبارة أو كوخ لقائد فرقة عسكرية تاهت فى هذه الجزيرة المعزولة فارتضى بالحياة هنا فى هدوء... تأملهم بنظرة متكبرة ثم قال فى غرور:
- أنا "كرم".. ملك هذه الجزيرة.

ثم برقت عيناه بالتحدى فى عيني "تونى" العجوز:
- الأوامر يجب أن تُنفذ بدقة.

وقف بينهم فارح الطول ضخم الجثة مثل قائد عسكري محنك يقسم العمل على جنوده بنبرات مفعمة بالثقة... اعترض "تونى" قائلاً: أنا لا أتلقى أوامر من أحد.. فرماه بنظرته النارية قائلاً فى ثبات:

- العمل أساس الحياة. و النظام أساس الكون. من يمتنع عن العمل لن يجد الطعام، و من يخرج عن طاعتي فليرحل عن مملكتي.

لم يجدوا أمامهم بدأ من العمل. راح "تونى" يجمع الثمار الناضجة و هو يشعر بمرارة الاضطهاد و الاستعباد، كان يريد لها رحلة سعيدة يختم بها حياته بعد أن أدى واجبه على أكمل وجه نحو وطنه فإذا به يقع فريسة سهلة لهذا البربرى.. ارتجف فى فزع عندما رأى حفيدته التى كان يُسخر كل شيء من أجلها ممزقة الثياب تنظف حظيرة الحيوانات.. التفت إلى "كرم" فوجده يجلس فى ظل شجرة زيتون ساكناً كتمثال من الصخر يراقبهم و فى عينيه ثقة لا حدود لها كأنه أحد آلهة الإغريق، يجب تحطيم هذا التمثال، لكن أين السبيل إلى ذلك و هو منزوع السلاح؟!... حمل سلة الثمار و راح يئن تحت ثقلها بخطوات مرتجفة إلى الكهف حيث تنتظر ابنته حسب أوامر "كرم" لاستلام الثمار و تنظيفها و تخزينها. ألقى بحمولته أمام ابنته فى غضب، فقالت "ليزا" هامسة:

- لا شك أنه غريق مثلنا، و يبدو أنه أمضى فترة طويلة وحيداً حتى اهتزت أعصابه و اختل عقله، يجب مجاراته و فى النهاية سنتعاون جميعاً للخروج من هذه الورطة.
قال "تونى" فى قلق:

- ملامحه شرقية، اسمه عربى، و أنا لا أثق أبداً فى هؤلاء البرابرة.

نظرت إليه فى شك. قد يكون بربرياً همجياً لكنه يتحدث لغتنا بطلاقة تامة و من الممكن التفاهم معه.

غابت الشمس بحرارتها و سطع القمر بديراً فى صفحة السماء يراقبهم من عليائه باسمماً كأنه يسخر من بنى الإنسان الذين يدعون العلم و المعرفة... أعدت الطعام بين جنبات الجبل حيث أمر "كرم"، فجلسوا جميعاً يلوكون الطعام و هم يتبادلون النظرات فى صمت رهيب. كانت "ليزا" هى المبادرة بالحديث فقدمت عرضها بأسلوب تجارى:

- قاربنا يتمتع بإمكانيات معقولة، لو تعاونت معنا فى إصلاحه قد نعود جميعاً سالمين.
نظر إليها فى دهشة:

- من قال لك أننى أريد العودة؟!!

سأل "تونى" متهمكماً:

- أتريد البقاء هنا وحدك؟

أجاب بهدوء:

- لقد أتيتم إلى هنا مرغمين، لكنى أتيت إلى هنا بإرادتى.

سألت "لورا" الصغيرة فى براءة:

- كيف؟

تأملهم "كرم" جيداً ثم قال:

- اشتريت قارباً أصغر من قاربكم بكثير و أبحرت به إلى هنا.

بدت الدهشة على الوجوه فأكمل مفسراً:

- أنا القبطان "كرم" حاصل على أعلى الشهادات فى كل فنون الإبحار.

سأل "تونى" فى حنق بينما عيناه تنطق بالشك:

- و لماذا لا تريد العودة؟
أجاب "كرم" و هو يرميه بنظرات التحدى:
- لأننى أرفض الحياة فى هذا العالم الهمجى، أرفض كل قوانينه اللا منطقية.
سألت "ليزا" فى دهشة:
- قوانين لا منطقية؟!...
أجاب جاحظ العينين بهدوء:
- هل من المنطق أن يُجبر القانون القبطان على طاعة القرصان طاعة عمياء؟!..
اندهشت لهذه المعلومة التى لم تكن تعرفها من قبل، بينما قال "تونى" الذى كان على دراية كاملة بالقوانين الدولية:
- و على القبطان إبلاغ السلطات لعمل اللازم.
قال "كرم" و هو شارداً إلى لا شىء:
- كانت سفينتى ترفع نفس العلم الذى كنت ترفعه بجوار النيران. طلب القرصان أحد المهندسين.. كان شاباً وسيماً و صديقاً ودوداً. ذهب المهندس معه دون أى مقاومة احتراماً للقانون، و عندما عدنا أبلغنا السلطات فلم تحرك ساكناً...
قال "تونى" مبتسماً كأنه يجارى طفلاً صغيراً:
- لأن القراصنة كما تعلم سريعو الحركة و يجيدون التخفى تماماً فى البحار.
ألقى "كرم" بالطعام الذى كان فى يده ثم سأل فى حدة:
- و ماذا تفعل الأقمار الصناعية التى تعد و تحصى عدد حبات الرمل فى الصحراء؟!..
سأل "تونى" نافذ الصبر:
- أتريد تسليط أقمار صناعية تكلفت المليارات لمجرد رصد حركة بضعة قراصنة؟!..
هب "كرم" واقفاً متباهياً بطوله و قوته ثم صرخ قائلاً:
- إذا كانت حياة الإنسان لا تساوى شيئاً، و إذا كان القراصنة من حقهم فعل أى شىء دون رقيب، فأنا القرصان "كرم".

صرخت "لورا"، ارتجفت "ليزا" و هي تتأمل هذا المارد المفتول العضلات.. كيف يمكن التفاهم مع هذه القوة المجنونة؟!..
ضحك "كرم" عندما رأى الخوف فى عيونهم.. أشار إلى أحد الكهوف قائلاً: هذا كهفكم. ثم تركهم منصرفاً إلى كوخه فى حضان الجبل.

كان الكهف غارقاً فى الظلام بينما الشموع التى علموا بعد ذلك إنه يصنعها من شحم الحيوانات تنير كوخه. ذهب "تونى" إليه طلباً للنور، فأجابه فى كبرياء و غرور: إن أثبتتم لى أنكم تستحقون النور سأسمح لكم به. فعاد "تونى" العجوز حائراً يتخبط فى الظلام، ثم قال لابنته ثائراً: لا شك إنه هو الذى أغرق قاربنا لإذلالنا...

فى هذه الليلة لم تصدقه "ليزا". كيف يكون "كرم" هو الذى أغرقهم بينما التيار هو الذى جرفهم إلى أن اصطدم القارب بالصخور فى قوة و عنف؟!..
لكنها الآن، بعد مرور يومين أصبحت تميل إلى تصديق رأى أبيها.. نظراته الحادة تدل على أنه يعرف أشياء كثيرة، ربما يعرفهم شخصياً و لا يبغى سوى إذلالهم و تعذيبهم.. بعد أن اغتصبها اليوم فمن المحتمل أن يكون قد خطفهم ثم قتل زوجها "جورج" طمعاً فى جمالها و شبابها...

عادت من ذهولها على صوت أحد يتحرك بالخارج.. تسلطت صورة وجه "كرم" العابس على ذهنها فهبت تعد الطعام فى فزع. لكنه كان "تونى" العجوز شاحب الوجه، زائغ البصر، محني الظهر. ألقى التحية على ابنته ثم جلس على الأرض يمدد قدميه أمامه و ما أن أسند بظهره إلى الحائط محاولاً البحث عن الإسترخاء حتى هب صارخاً.. جرت نحوه تعاونه على خلع سترته ثم راحت تغسل له ظهره بقطعة مبللة من القماش برفق شديد. الجروح فى ظهر أبيها تنزف دماً، الدموع فى عينيها و هى تتذكر وجه "كرم" المتجهم.

لقد اختفى "كرم" بالأمس فى ساعة العصر، فاقتحم "تونى" كوخه بحثاً عن السلاح. نقب فى كل ركن، فتنش فى كل شبر. استبد به الحنق فراح يقلب الأواني الفخارية و قطع الأثاث البسيطة التى صنعها من فروع الأشجار. حفر الأرض الترابية فى جنون، ثم برقت عيناه فى رعب عندما شعر بظل وارف يجثم عليه كأنه شبح مخيف يأتى من عالم غامض مريب.. التفت فرأى "كرم" محديقاً فى الجرح القديم الذى يشوه ذراعه اليمنى فى تحد رهيب. لم يفعل شيئاً سوى أن قال فى حزم:
- فى مملكتى لا داعى لحمل السلاح.
استجمع "تونى" شجاعته ثم صاح غاضباً:
- أين البندقية؟

فزع "كرم" أحد فروع الأشجار و انهال عليه ضرباً دون أى احترام لشيخوخته و دون أى اعتبار لصراخ ابنته و حفيدته اللتين أتتا على صوت شجارهما.
انهمكت فى إعداد الطعام.. قال "تونى":
- لا تصدقنى أنه قبطان. هؤلاء الشرقيون غدارون بطبعهم، لقد لجأ إلى هذه الخدعة حتى نستكين لإذلاله لنا طمعاً فى عونه فيما بعد.. صدقيني لن يتعاون معنا أبداً، بل سيتمادى فى إذلالنا حتى يسخرنا فى أعماله الإجرامية القذرة.

نظرت إلى أبيها فى قلق. لا شك أن رأى أبيها صحيح، لكن لا بد من إيجاد مخرج من هذه الورطة.. لا شك أن العلاقة ستكون ألطف بعد أن ضاجعها.. لاحظت أنه يكون سريع الغضب شديد الانفعال أثناء النهار بينما يكون أكثر هدوءاً أثناء الليل، فقررت مواجهته فى اللحظة المناسبة...

عندما بدأت الشمس تميل نحو المغيب صعدت إلى قمة الجبل، رأتة يجلس ساكناً يتأمل البحر و هو يتنهد من حين لآخر. طلبت منه العون فى إصلاح القارب فرفض بشدة. طلبت مجرد السماح لهم بإصلاحه و حدهم فوافق بشرط أن يكون ذلك فى غير مواعيد العمل.

اتفقت مع أبيها على الاستيقاظ قبيل الفجر لمحاولة الإصلاح، و عندما ذهبنا إلى الشاطئ لم يكن القارب هناك. انهارت باكية و هى تلوم أباهما:
- لماذا لم تلق بالخطاف أو تكبله بالحبال.
صرخ "تونى" فى فزع:

- لقد كبلته جيداً.. لقد خطفه هذا المجنون.
أنت ضحكات "كرم" الساخرة من حزن الجبل ثم قال بصوت يدوى كالرعد يهز
جنبات الجزيرة:
- أيها الأحمق، ألم ينبهك قبطانك بأنها منطقة تيارات جارفة؟!.

(3)

بينما كان "تونى" و ابنته يعملان فى الأرض تحت أشعة الشمس الحارقة بدا "كرم"
قادماً من الشاطئ، مبتل الثياب مرهقاً، العرق يتفصد من وجهه بغزارة، حاملاً بين ذراعيه
"لورا"... جرت "ليزا" نحوهما مذعورة يتبعها أبوها مترنحاً بخطواته الثقيلة كأنه دب
متوحش على وشك الهجوم.. كانت "لورا" ترتجف و هى تسعل سعالاً حاداً يشق صدرها
الصغير.. نظر "كرم" إلى "ليزا" فى عتاب ممزوج بالتحدى و الغيظ كأنه يلومها على
إهمال ابنتها ثم قال فى حنق:
- كانت ستغرق لولا ستر الله.

نصح "كرم" الصغيرة بأن تمدد جسدها بجوار باب الكهف حيث تكون تيارات الهواء
شديدة و نقية فتساعددها على استعادة أنفاسها اللاهثة.. بعد أن طمأنهم على صحة و سلامة
"لورا" و هو يجول فى المكان بنظرات مرتبكة كأنه يحاول إخفاء شعوره بالخجل أمر
"ليزا" بترك العمل و البقاء بجوار ابنتها لرعايتها، ثم انصرف فى هدوء بعد أن ألقى نظرة
حزينة على "لورا".. قال "تونى" فى قلق و هو يرقبه صاعداً إلى كوخه:
- إنها مسرحية قذرة من شخص حقير ليبدو أمامنا فى صورة البطل.

نظرت إليه "ليزا" من بين دموعها فى عتاب، ليس هذا وقته، الصغيرة تصرخ و
تتلوى على الأرض و هى تعتصر بطنها بيدها. أين السبيل للحفاظ على سلامة ابنتها فى
هذه الورطة و قد أصبحت وحيدة بعد أن فقدت زوجها فى البحر؟!... و ها هى الشيوخة
تكاد تفتك بأبيها بينما يبدو القرصان الشاب مخبولاً...

عاد "كرم" بعد قليل حاملاً فى يده أنية فخارية تحوى مسحوقاً غريباً. أمر بمنع الطعام
عن الطفلة، يجب أن تشرب هذا المسحوق الآن حتى يجنبها آلام المعدة. نظرت إليه "ليزا"
متشككة، فشرب هو من المسحوق قائلاً فى هدوء:
- إنه لتطهير أمعائها بعد أن شربت الكثير من مياه البحر، كما إنه مقو عام لصحتها.

ارتشفت "لورا" المسحوق برهبة فى بادئ الأمر، ثم راحت تعب منه فى نهم، ضحكت
"ليزا" رغماً عنها فقال "كرم" مبتسماً لأول مرة:
- لقد أضفت إليه بعض الفواكه ليكون مقبولاً لديها.

فقال "تونى" ساخراً:

- يا لك من إنسان طيب القلب.

نظر "كرم" إليه في غضب ثم تركهم منصرفاً، بينما راحت "ليزا" تربت على صدر ابنتها برفق شديد و تسألها عما حدث، فراحت الصغيرة تقص عليها بأنها كانت تخطط منذ الصباح للذهاب إلى الشاطئ للاستحمام في البحر، أنهت تنظيف الحظيرة بسرعة ثم راحت تجرى نحو البحر و هي تتخفى عن أنظارهم بين الأشجار. رأيت البحر هادئاً وديعاً، المياه صافية و لا يوجد أية أمواج، رحت ألعب و ألهو وحدي. كان العمق بسيطاً، أقدامى على الأرض بينما المياه لا تكاد تصل إلى صدري، شعرت بالمياه تتحرك من تحت أقدامى عندما رأيت "كرم" واقفاً على الشاطئ يصرخ في و يأمرني بالخروج من البحر بسرعة، رأيت في عينيه الغضب فخفت منه، نزل البحر قادماً إلى فرحت أسبح هرباً من هذا البربرى كما يقول جدى. لحق بى، قبض على بطنى فى قوة حتى كاد يخنقنى، أمرنى بتنفيذ كل أوامره و إلا سيغرقنى هنا دون أن يشعر بى أحد، مدد ذراعه اليسرى لى و أمرنى بالتعلق بها جيداً، عندما فعلت ذلك قال مشجعاً: أنت طفلة ذكية، هكذا سنعود بسلام إلى الشاطئ. ثم راح يسبح بى فى اتجاه البحر و ليس فى اتجاه الشاطئ. تذكرت حديث جدى عندما قال أن هؤلاء الشرقيين غدارون، فنهشته بأسناني فى يده و هربت فى اتجاه الشاطئ، لحق بى مرة أخرى قابضاً على صدري بكل قوته و سحبني إلى البحر. لم أشعر بشئ بعد ذلك إلا و أنا ملقاة على الرمال و هو يجلس بجانبى، عندما فتحت عيني هتف قائلاً فى إرتياح: الحمد لله...

بعد أن اختفت الشمس بحرارتها خلف البحر المترامى نامت "لورا" بينما كل عضلات جسدها ترتجف. تهتف باسم أمها أو أبيها من حين لآخر، و أحياناً أخرى تهتف باسم "كرم". تحرك يديها فى الهواء كأنها تصارع الأمواج، ثم تتحسس بطنها و صدرها كأن قبضة "كرم" قد لسعتها.. استعصى النوم على "ليزا" و هى ترى ابنتها فى هذه الحالة. جلست أمام باب الكهف تفكر فى كلام أبيها. لو كانت مجرد مسرحية لإثبات بطولته فإنه بحق مجرم خطير حاد الذكاء يسعى لتسخيرهم فى أعماله الإجرامية و إن لم يكن ذلك صحيحاً فإنها مدينة له بحياة ابنتها...

رأت شبحاً يخرج من الكوخ فى اتجاه قمة الجبل فذهبت إليه. رأتها يتأمل آثار أسنان ابنتها فى ذراعه اليسرى فضحكت رغماً عنها. قال و هو يسحب نفساً عميقاً:
- لم أكن أتوقع أبداً أن تخشاني إلى هذا الحد؟!
فقال فى تشف عندما شعرت بالحسرة فى نبرات صوته:
- إنك تتعمد إثارة مخاوفنا.
سأل فى دهشة:

- أتهرب منى بالرغم من أننى لا أريد سوى إنقاذها؟!
ثم برقت عيناه و هو يتساءل فى فزع:
- هل أنا إنسان مرعب إلى هذا الحد؟
اطمأنت "ليزا" بعد أن شعرت من حديثه بعاطفة الأبوة، فجلست إلى جواره و هى تقول:

- يبدو أنك أب حنون.

سرح ببصره كأنما يتذكر الماضي البعيد و هو يقول:

- لم يكن لدى سوى طفل واحد اسمه "خالد"، دربته على السباحة و هو فى الثالثة من العمر بينما كانت أمه "جواهر" تصرخ ملتاعة: الولد مازال صغيراً. فأقول لها ضاحكاً: عما قريب سيصبح رجلاً له شارب كثيف. صورة وجهه القمى البرىء لا تفارقنى و هو يطوق رقبتى بيديه الصغيرتين الضعيفتين، فأنا طوق النجاة الوحيد بالنسبة له، بينما فى الحقيقة كان هو طوق النجاة الوحيد بالنسبة لى، ليس من البحر فقط بل من كل مشاكل و هموم الحياة. كنت أسرف عليه فى الهدايا و الحلويات و الألعاب المثيرة، فتصرخ زوجتى: أنت تدلله أكثر من اللازم. بينما كنت فى الحقيقة أحاول تعويضه عن حرمانه منى لمدة شهور طويلة أجوب مختلف بلاد العالم. ألحقته بمدرسة أجنبية رغم اعتراض زوجتى على مصروفاتها الباهظة، فقلت لها: أريده أن يتعلم عدة لغات حتى يكون مثقفاً واعياً، يحتك بكل شعوب العالم، يختلط بثقافتهم و عاداتهم المختلفة فيصبح رجلاً قوياً ذا ثقافة واسعة و خبرة عميقة.. اشتريت له أفخر الثياب بمناسبة دخوله المدرسة، و عندما رأت زوجتى إسرائفى عليه اقترحت شراء قطعة أرض زراعية لتكون سنداً لابننا عندما يكبر.. نجحت فى توفير مبلغ كاف من راتبى الذى كنت أرسل لها معظمه فى خلال عامين.. أطلقت على الأرض "مزرعة خالد" و اشتريت كلبين صغيرين لتدعيم حراستها، رحت أحلم بـ "خالد" و هو يسير فى الأرض بين الكلاب مفتول العضلات، فارح الطول، له لحية سوداء تنم عن الرجولة و الخشونة، فتضحك زوجتى قائلة: أنت تتخيله فى أشكال كثيرة. فى ذات يوم عدت من البحر بعد غياب سنة كاملة لأجد زوجتى جاحظة العينين فى ذهول مرتديه ملابس الحداد السوداء... مات "خالد" قبل عودتى بأسبوعين..

انتفضت "ليزا" تسأل فى فزع:

- كيف؟!!

أجاب و قد تقلصت كل عضلات وجهه:

- لقد أصيب بالبرد مثل كل الأطفال. تناول الدواء الذى وصفه أشهر الأطباء، ثم اتضح بعد ذلك أن الدواء كان منتهى الصلاحية فتحول إلى سم زعاف.
قالت ثائرة:

- كان يجب أن ترفع قضية على شركة الأدوية.

فقال و هو يرميها بنظرات الحنق:

- بالرغم من أن كل التعويضات مهما كانت لن تعوضنى أبداً عن إبنى الذى قُتل إلا أننى رفعت قضية محارباً الإهمال الذى يقتل أبناءنا.

التصقت به مشجعة:

- و ماذا حدث فى المحكمة؟

تنهد فى أسى قائلاً:

- أثناء القضية اتضح أن الدواء تم استيراده بعد انتهاء تاريخ صلاحيته بزمان طويل. كما اتضح أن صاحب الشركة المستوردة هو وزير الصحة نفسه، و الوزراء عندنا يتمتعون بقدسية خاصة مثل آلهة الإغريق. كما علمنا بعد ذلك أن السلطان نفسه شريك لهذا الوزير، و السلطان عندنا هو "زيوس" كبير الآلهة... و ربما أكثر قداسة منه...

مسح جبينه بيديه في عصبية كأنه يحاول محو هذه الذكريات دون جدوى، ثم أكمل:
- لا أعرف ما الذى أصابنى عندما اكتشفت استحالة القصاص من قتلة ابنى و أبناء كثيرين مثلى. قالوا لى أننى نسيت كل شىء حتى اسمى و اسم زوجتى. أصبحت كثير الشرود إلى لا شىء، قالوا أن الأشياء كانت تتحطم فى يدى، على ما أنكر أننى كنت أحاول جاهداً السيطرة على أعصابى و أنا أمسك الأكواب الزجاجية مثلاً، لكن الصعقة الكهربائية كانت تداهمنى فجأة فأجندنى أضغط على الكوب رغماً عنى فيتحطم فى يدى فأشعر بالراحة بعد أن أرى الدماء الغزيرة تسيل من بين أصابعى.

تنهدت قائلة:

- يبدو أن فى الشرق سلبيات كثيرة كما يقول أبى.

سأل فى هدوء:

- هذا صحيح، لكن ألا يوجد سلبيات فى الغرب؟

أجابت ساخرة:

- الحُكام و الوزراء عندنا ليسوا آلهة.

فسأل فى تهكم:

- هل بيع الأدوية المغشوشة من مظاهر التقدم و الرقى؟

جحظت عينا "ليزا" و هى تسأل:

- أكنت تريد إغراق ابنتى على سبيل الانتقام؟

نظر إليها ملياً، ثم دفعها من جواره فى غضب و تركها عائداً إلى كوخه...

(4)

مالت الشمس نحو المغرب تحفها أشعتها الحمراء فى مشهد جنائزى مهيب، بينما راحت نسيمات البحر الرقيقة تمرح فى الجزيرة و تداعب أغصان النبات.. بعد أن انتهت "ليزا" من طهو الطعام و تذوقه حتى تتأكد من أنه سيروق لـ "كرم" جلست على إحدى الصخور تعد الأيام التى مرت عليهم فى هذه الجزيرة الموحشة، ربما عشرة أيام أو أسبوعين، حاولت تذكر الأحداث لمعرفة الرقم الصحيح دون جدوى، اختلطت عليها الأمور حتى بدت كأنها فقدت الشعور بالزمان. عاد "تونى" من الحقل و هو يتشمم رائحة الطعام فى اشتها، أحشاؤه تتلوى

جوعاً بعد العمل الشاق فى الأرض طوال النهار، لكن لا أحد يستطيع الاقتراب من الطعام قبل حضور "كرم".. سألت أباها عن الوقت الذى مر عليهم هنا، تتهد "تونى" قائلاً:

- أشعر أنه قد مر علينا عام كامل هنا.

ثم أكمل فى حنق:

- يبدو أن هذا القرصان الحقير سيدفننى هنا.

قالت محاولة تهدئة مخاوفه:

- كرهك له يثير عناده و غضبه.

قال و هو يجلس بجوارها:

- إنه إنسان ماكر خبيث، يعرف جيداً كيف يعبت فى عقول الناس و يسخرهم لمصلحته.

قالت محاولة أن تكون حمامة السلام بين أبيها و"كرم" لعلها تجد مفراً من هذه الورطة:

- ليس شريراً إلى هذا الحد.

قال "تونى" فى قلق:

- القراصنة لا يعيشون فرادى أبداً، إنهم يحيطون أنفسهم بجماعات من المجرمين

الخارجين على القانون، لا يتفاهمون إلا بالقوة الغاشمة، لا هم لهم سوى إشباع ملذاتهم و إرضاء غرورهم.

قالت متشككة فى رأى أبيها:

- لا يوجد أحد غيرنا فى الجزيرة.

جحظت عينا "تونى" و هو يتلفت حول نفسه ثم قال بصوت منخفض و هو يضغط

على مخارج الحروف ليؤكد خطورة كلامه:

- ألا تلاحظين أنه يختفى فجأة لمدة ساعة أو ساعتين ثم يظهر فجأة. أين يختفى و

ماذا يفعل؟!... لقد سمعته بالأمس يتحدث مع أحدهم بلغتهم البربرية.. قراصنة العرب

أخطر و أخبث أنواع القراصنة.

سقطت "ليزا" فى بحر متلاطم الأمواج من الشكوك. إنه يختفى بالفعل من حين لآخر.

من المستحيل أن يعلم أحد بما يدور فى رأسه. لكنه يحاول الآن التقرب إلى "لورا"، بدأ

يلاطفها و يعاملها برفق منذ أن رأى فى عينيها الفزع منه و هى على وشك الغرق. و الغريب فى الأمر أن الصغيرة بدأت تطمئن إليه و تثق به، أصبحت تقبل على عملها فى رعاية الأغنام بنفس راضية. لقد عاونها بالأمس فى جز صوف الأغنام و دكها تمهيداً لتصنيعه، كانت ضحكاتنا البريئة الطفولية تجلجل و هى تقفز فوق الصوف.. ها هى عائدة من عملها تقفز مثل عصفور صغير، سألتها أمها عن سبب سعادتها فأجابت الصغيرة مبهورة الأنفاس:

- وعدنى "كرم" بتقديم هدية لى على العشاء.

ذهلت "ليزا" من هذا الحنان الدافق الذى أصبح عليه هذا الهمجى البربرى، اضطرب قلب "توني" فى عنف، لا شك إنها لحظة غدر جديدة، قد يعتقلهم الليلة أو قد يقتل أحدهم، بينما راحت "لورا" تعاون والدتها فى إعداد الطعام و هى تتعجل الوقت لتسلم هديتها الثمينة من هذا القرصان العنيد الذى يتعامل مع الجميع بقسوة بالغة بينما يتعامل معها هى فقط برفق و رحمة.

أتى "كرم" حليق الذقن فبدا شاباً وسيماً مفتول العضلات مفعماً بالنشاط و الحيوية، لم يلتفت لأحد، بل تقدم نحو "لورا" بخطوات ثابتة و على شفثيه ابتسامة صافية كأنه أحد فرسان القرون الوسطى يتقدم نحو مليكته، أخرج من جيبه سلسلة معدنية يتدلى منها فانار مصنوع بدقة و عناية فائقة من الخشب. علق السلسلة فى رقبة الصغيرة و هو يقول:

- إنها هدية من شخص عزيز لى، لكنى قررت إهداءها لك.

ابتسمت "لورا" فى خجل و هى تدور بعينيها فى عيون من حولها، بينما سألت "ليزا":

- من زوجتك؟

أشار لهم "كرم" بما يفيد بدء تناول العشاء ثم قال:

- إنها من صنع صديق الطفولة و الشباب "باسم".

قالت "ليزا" و هى تتأمل الفانار بإعجاب:

- يبدو أنه فانان راق مهذب.

قال "كرم" و هو يراقب "توني" الذى راح يلتهم الطعام بشراسة:

- كان جارى فى نفس العمارة، يعشق الألوان و الرسم و فن النحت منذ نعومة أظافره، لكنه كان نشيطاً عنيفاً كأنه عفريت صغير خارق القوة خفيف الظل، الابتسامة لا تفارق شفتيه، مولعاً بعشق الطبيعة و غزل الفتيات الجميلات، يمضى ساعات طويلة فى الرسم و النحت و هذا ما كان يزعج أباه الذى كان إماماً فى المسجد المقام على ناصية الشارع.

سألت "ليزا" فى دهشة:

- لماذا؟

أجاب فى يأس:

- لأن أباه كان يعتقد أن الرسم حرام، النحت بدعة و "كل بدعة ضلالة و كل ضلالة فى النار". كان يضربه كثيراً ليحفظه بضعة آيات من القرآن دون جدوى، يضربه بغلظة حتى يجبره على أداء الصلاة معه فنفر من المسجد. و عندما أصبحنا فى مرحلة الشباب كان يضطر إلى الهروب من بيته بضعة أيام يقضيها على شاطئ البحر يرسم إحدى لوحاته أو فى الحدائق العامة يصنع تمثالاً من الصلصال. عندما اكتشف أبوه التماثيل فى بيته ثار قائلاً لزوجته: ابنك كافر، يعبد الأوثان و ينجس بيتى. فى النهاية طرده من المنزل. فراح يعمل فى أحد الكازينوهات السياحية، هناك تقابل مع "جوديث" مصادفة، أعجب كل منها بالآخر، إلى أن استضافته فى منزلها و قدمت له أول كأس من الخمر، رفض بشدة قائلاً: هذا حرام. لكنها استطاعت إقناعه بأن الله فى الإسلام يفضل المؤمن القوى على المؤمن الضعيف، و الإنسان لا يكون قوياً إلا إذا كان عميق الخبرة كثير التجارب. أقبل على الخمر طمعاً فى القوة و رغبة فى التجربة، ثم تلاحم معها فى خبرة جنسية عميقة إلى حد الإدمان حتى أصبح عاجزاً عن الإنفاق على نفسه و عليها هى أيضاً، فبدأ يستغل موهبته الفنية و ذكائه الشديد فى تزوير الدولارات و عقود الأراضي و العقارات مدعياً أنه مالکها ليبيعها و يقبض الثمن. كنت أنا فى هذا الوقت بحاراً صغيراً، اكتشفت فى إحدى الإجازات إنه يسير فى طريق الانحراف بسرعة مجنونة، أنبته فى عنف، عندما وجدته لا يستجيب لى هددته بقطع كل أواصر الصداقة القديمة، أصابته حالة اكتئاب شديدة، فى النهاية ذهب إلى قسم الشرطة ليسلم نفسه. هناك كانت المفاجأة. بالرغم من كل اعترافاته بالتزوير و الاحتيال إلا أنه لم يكن هناك أى بلاغ ضده، و لا يستطيع الضابط إلقاء القبض عليه بدون بلاغات و تحقيقات صارمة للتأكد من صحتها. لم يجد "باسم"

أمامه بدأ سوى أن يضرب أحد المخبرين بطفاية الحريق ليدخل السجن و يكفر عن ذنوبه بينما عادت "جوديث" إلى "تل أبيب" بعد أن حولت ما بقى من أموال "باسم" إلى حسابها في أوروبا... لم يصدق مدير السجن حديث "باسم" عن التوبة، بل اعتبر كل ما حدث ما هو إلا خدعة ليبعد الأنظار عن جريمة أكبر و أشنع لا أحد يعلمها حتى الآن، فبدأ في تعذيبه لإجباره على الاعتراف. بعد أسبوع واحد فقط طلب أباه في ثورة عارمة و هو يضرب زملاءه السجناء، أتوا إليه بأبيه في حجرة مدير السجن، ألقى "باسم" بنفسه في حضن أبيه و هو يبكي بعنف إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة.

قالت "ليزا" و هي تتأمل الفنار في شفقة:

- مسكين "باسم"، عاش مظلوماً و مات مظلوماً.

برقت عينا "كرم" بالقوة ثم تنهد قائلاً:

- فيما يبدو أن كلنا مظلومون و لا أحد يعلم من الظالم؟

استشاط "توني" غضباً من تعاطف ابنته فقال في سخرية:

. إن كنتم تعتبرون الفن الجميل حراماً فكيف تدعون المدنية و الحضارة؟

ألقى "كرم" نظرة متحدية على ذراع "توني" المصابة ثم قال:

- أنت أعلم منى بظروف الشرق.

تركهم في هدوء، لم يصعد إلى كوخه بل راح يتجول في الجبل وحده كروح هائمة تبحث عن مستقر لها. صعدت "ليزا" إليه لعلها تستطيع إقناعه بإشعال النيران مرة أخرى في مكان واضح حتى يلفتوا أنظار سفينة أو طائرة عابرة. بالرغم من غموضه و جبروته إلا أنه يكون ضعيفاً أمام ابنتها، بل ربما ضعيفاً أمام الطفولة ذاتها، يجب استغلال هذا الضعف جيداً حتى تضمن مساعدته...

دفعها الفضول إلى اتخاذ طريق جديد في الصعود، عرفت مصدر الرائحة التي تشتممها من حين لآخر عندما اكتشفت أشجار الورد التي يقلمها بدقة و عناية فائقة... تعثرت في حجر صغير فسقطت متدرجة بين الأشجار الكثيفة المتشابكة، اعتدلت جالسة و هي تتأوه و تتأمل المكان حولها، اكتشفت مدقاً ترابياً ضيقاً بين الأشجار، يبدو كأنه طريق خاص أنشأه هو بنفسه. الظلام حالك يبعث في النفس الرهبة كأنه ظلام الموت. استندت بيدها تتأمل الممر في دعر فاكتشفت تحت يديها آثار الأقدام، هبت تكمل طريقها في لهفة...

- رأته جالساً فوق قمة الجبل، على ذراعه اليمنى الممدة طائر ضخم، سألت في ذهول:
- ما هذا الطائر الغريب؟
- قال و بريق القوة في عينيه:
- صقر.
- قالت و هي تتذكر بعض ما قرأته:
- هل صحيح أنه قادر على حمل الخراف الصغيرة ثم يلقي بها فوق الصخور ليقتلها قبل التهامها؟
- أجاب مبتسماً:
- هذا صحيح. و هو قادر على حملك أنت و فعل الشيء نفسه.
- انتفضت و هي تقول في قلق:
- و لماذا تفعل بي ذلك؟
- أجاب و هو ينظر إليها بثبات:
- لأنك ابنة "توني".
- قالت متحدية بالرغم من ارتعاش صوتها:
- أنت الذى تتعمد إثارته فينفر منك.
- قال فى إستعلاء:
- لأنه إنسان غبى لا يقنع إلا بالقوة فقط.
- قالت مدافعة عن أبيها:
- ليس كذلك على الإطلاق. إنه يحلم بحفيدته مثلما كنت تحلم أنت بابنك، يحلم بها سفيرة مهذبة مثقفة راقية، تجوب العالم لتتشر الحضارة و المدنية و الإنسانية فى كل مكان.
- ضحك فى سخرية قائلاً:
- و هذه هي الكارثة.
- لماذا؟

- قال فى هدوء و هو يمسح بأصابعه ريش الصقر:
- لأن جدها يرببها على استعباد الهاربين من الفقر و الظلم فى البلاد المتخلفة.
- هبت واقفة فى ذعر و هى تقول:
- أنت تعرف "تونى" جيداً.
- قال ضاحكاً باستخفاف:
- هل يخفى القمر؟ كل الناس تعرف "تونى" النبيل الشريف نصير حقوق الإنسان.
- قالت متحفزة:
- لم يكن أبداً عضواً فى أى منظمة من منظمات حقوق الإنسان، بل كان أحد مديري البنك الدولى.
- و مع ذلك كان يلقى محاضرات طويلة عن حقوق الإنسان.
- ثم ضحك فى نشوة عارمة و هو يرى نظرات الرعب و القلق فى عينيى "ليزا".

(5)

اتجهت "ليزا" بخطوات مثقلة مرهقة إلى الكهف الذى يطلق عليه "المخزن"... الأوانى الفخارية الضخمة و البراميل الخشبية مرصوفة بدقة و عناية حيث يحتفظ بكل أنواع الغذاء التى تُزرع هنا. فى الركن الشرقى يحتفظ بالحبال فى عدة لفائف بمختلف الأحجام و المقاسات. كل شىء هنا خشن بدائى الصنع، يخلو تماماً من الأناقة و الجمال لكنه لا يخلو أبداً من المتانة و القوة. بجوار الحبال يحتفظ بألواح من الخشب المنزوع من الأشجار. يبدو المكان كأنه مخزون استراتيجى لدويلة تستعد للحرب، أو مخزن لأحد عصابات المافيا التى تتشاهدها فى أفلام المغامرات. لم يكن من الصعب الوصول إلى الأنية التى تحوى ماء الورد من رائحتها العطرة النفاذة. ملأت الأنية الحديدية التى معها بماء الورد ثم راحت تصعد الجبل بخطوات مرتجفة و قلب خافق، بينما القلق من المستقبل الغامض يبدو واضحاً فى عينيها.

لقد أعلن بالأمس أنه لا يريد الانتقام منها إلا لأنها ابنة "تونى"، يبدو أنه يعرفه جيداً و يعلم عنه أشياء كثيرة، بينما يبدو أن أباه لا يعرفه أبداً.. أين الحقيقة؟ و ماذا يضمّر هذا المتوحش الذى يملك الجزيرة و ما عليها؟ بالتأكيد لا يضمّر أى نوع من أنواع الخير...

رأته جالساً فوق صخرة منحوتة على شكل مقعد وثير، عندما رآها ابتسم مرحباً، ثم مدد ساقيه أمامه قائلاً:

- أريد غسل قدمي بماء الورد.

وضعت الإناء تحت قدميه ثم اعتدلت واقفة في انتظار أوامره، أشار بيده إلى قدميه

أمرأً بحسم:

- اغسلي.

أخذتها الدهشة. لم تكن تتوقع أبداً أن تقوم بخدمة مثل هذا الوحش في يوم من الأيام، لقد كان أمثاله هم الذين يخدمونها و يدللون ابنتها و في عيونهم نظرات الحسد الممزوج بالرهبة. لكنها الآن تحت رحمته، الشرر يتطاير من عينيه في انتظار تنفيذ أوامره، تذكرت الصقر الذي كان رابضاً على ذراعه بالأمس، تذكرت ابنتها التي تعمل الآن في حظيرة الأغنام. ماذا سيكون مصير "لورا" لو قرر "كرم" قتل أمها الآن؟ لا بد من الخضوع. هوت تغسل قدميه بينما هو يرقب وجهها الأبيض الشاحب و شعرها الأصفر المتهدل و ثيابها الممزقة في نشوة و سعادة. أسند ظهره للخلف و راح يقلب وجهه في السماء و يراقب حركة السحب قائلاً بهدوء:

- هذه السحب ذاهبة إلى بلادنا الجنوبية.

انهمكت في غسل قدميه دون أن تنطق بكلمة واحدة لتشعره بعدم اهتمامها به، فأكمل

و هو يبتسم حالماً:

- في خلال بضعة أيام ستصل إلينا أول عاصفة. في طفولتي كنت أنتظر هذه النوة

بصبر نافد، فأنطلق أجرى تحت الأمطار بينما يتبعني صديقي "باسم" إلى أن نصل إلى

شاطئ البحر. كان يراقب البحر الثائر في هلع بينما كنت أنا أحلم بركوب البحر لأجوب

مختلف بلاد العالم. عندما تحقق الحلم و أصبحت بحاراً وجدتني في كل رحلة أشتاق إلى

بلدي بمينائها الآمن و فنارها الهادي.

سألت متحدية:

- إن كنت تحب بلادك إلى هذا الحد فلماذا هجرتها؟

قال وهو مازال شاردأً في السحب:

- لدينا مثل شعبي يقول: لا يدفعك إلى المر إلا ما هو أمر منه.

تفهم ما يقصد لكنها قالت متعمدة إثارة غيظه:

- إنها مجرد ثرثرة لكي تستريح.

استرخت كل عضلات جسده تحت لمسات يديها، ثم تنهد قائلاً:

- بعد موت ابني ضاقت بي الدنيا، أصبحت أرى الشوارع ضيقة خانقة مزدحمة،

أصبحت أتشاجر مع الناس لأتفه الأسباب، ابتعدت عن البحر بعد أن فقدت الرغبة في

مواجهة هذا الجبار الذي كنت و مازلت أعشقه حتى الآن، قررت الإقامة الدائمة في

"مزرعة خالد". عندما ذهبت إلى هناك اكتشفت أن الحياة لا تُطاق، كل شيء يذكرني بابني

الذي قُتل و من المستحيل القصاص من القتلة. الإقامة في المزرعة جحيم و البعد عنها

جهنم.. تتنابني حالات الإيمان و الاستسلام للقدر لمدة ساعات فقط، فأنهمك في العمل

بمنتهى الجد و الإخلاص و أنا أواسي نفسي و زوجتي بأن "مزرعة خالد" يجب أن تكون

أفضل المزارع في البلاد، بل في العالم بأكمله.. ثم تتنابني لحظات اليأس، ما جدوى كل

ذلك إذا كان "خالد" يرقد تحت التراب شهيد الإهمال و السرقة. الليل طويل و النوم مستحيل. زوجتي الجميلة بجانبى لا أشعر بها و لا تشعر بى. قالت لى أن الفراش يلسعها كأنه قطعة من النار. فأربت عليها برفق دون أن يشعر أى منا بالمواساة. إذا غفوت أنا لمدة لحظات أستيقظ فجأة على ضحكات "خالد" البريئة تجلجل فى المكان. أخرج لأمشى وحدى فى الحقول، أشعر بأننى سأقابلة فى مكان ما و أن هذا اللقاء قريب. أسمع صوته ينادينى من خلف الأشجار فأبحث عنه دون جدوى. ثم يأتينى صوته مستغيثاً من جدول المياه فأهرع إلى هناك فلا أجد سوى الظلام الدامس. كان مثل السراب نراه جيداً و لا نستطيع أبداً الوصول إليه مهما قربت المسافات.

و فى ذات صباح استيقظت على همسات الناس القلقة. ضباط الأمن يطوفون فى كل أرجاء البلدة و لا أحد يعلم السبب. فى العاشرة صباحاً كانت كل الطرق قد أغلقت، منعوا كل السيارات من التحرك، ترك الناس عملهم و قيعوا فى بيوتهم فالعمل ممنوع و الجلوس فى المقاهى ممنوع. ظلت كل مداخل و مخارج البلدة مغلقة إلى أن حان أذان المغرب فعلمنا أن ابن السلطان أتى إلى هنا لأداء صلاة المغرب فى مسجد البلدة. تساءل البعض ساخراً هل ضاقت به مساجد العاصمة الفاخرة فلم يجد سوى مسجد بلدتنا المتواضعة. بينما التزم البعض الآخر بالصمت. بعد المغرب رأيت مزرعتى محاصرة بالسيارات السوداء الفارهة، هبط منها رجال كثيرون مكفهرى الوجوه يرتدون حلا سوداء و ربطات عنق رمادية اللون فى غاية الأناقة، يضعون السماعات الصغيرة فى آذانهم، يتحركون بخفة و رشاقة و هم يتعمدون تحريك ستراتهم ليظهروا أسلحتهم المخيفة تحت السترات. وقفت أنظر إليهم فى ذهول لا أدرى ماذا أفعل. تقدم أحدهم نحوى ثم قال فى هدوء و ثقة: ابن السلطان قادم لزيارتك. سألت عن السبب و أنا أتعجب مما يجرى فى مزرعتى، فقال الضابط مبتسماً كأنه يزف إلى بشرى عظيمة: زوجتك أعجبت ابن السلطان و هو يريد معرفتك.. أمرت زوجتى بالتزام حجرتها و شددت عليها ألا تبرحها أبداً.. تقدمت إحدى السيارات السوداء و هى تدهس بعجلاتها الأرض المزروعة إلى أن وصلت إلى الدار. هبط منها ابن السلطان، شاباً وسيماً متوسط الطول رشيق القوام.. قال و هو يرتشف القهوة بأناقة بالغة إن أرضى مساحتها واسعة و فى مكان جيد جداً، و إنه على استعداد لتقديم كل التسهيلات لى حتى تصبح أكبر مزرعة فى البلاد، و لن يستطيع أحد منافستى أبداً. ثم طلب التعرف على زوجتى "جواهر"، فأخبرته على الفور بأنها مريضة و لن تستطيع مغادرة الفراش... توقعت أن يتزاحم الناس حولى فى الصباح لمعرفة ما حدث فى هذا اللقاء العظيم، لكن لم يحدث شىء من هذا، بل أصبح الجميع يبتعد عنى فى قلق. قصصت لأحد المهندسين، و هو أقربهم إلى، ما حدث بالأمس، ثم سألته متى و أين رأى زوجتى. فأجابنى قائلاً إن أكبر الشركات تتبع ابن السلطان بطريقة أو بأخرى، و شركة الأدوية التى قاضيتها تتبعه هو أيضاً، من المؤكد أنه طلب ملف القضية و مراقبتكم، فوصلت إليه صورتها. سألته عن الحل لكنه لم يجبنى... فى المساء تأملت زوجتى فى قلق. كانت رائعة الحسن بحق، رشيقة القوام، خمرية اللون، مستديرة الوجه، عينان سوداوان صافيتان، تسقط خصلة من شعرها على وجهها تزيدها حسناً و جمالاً. لا بد أن يطمع كل الرجال فى هذا الحسن، لكنها زوجتى أنا و من حقى أنا فقط. فى اليوم التالى، بعد أن خرجت من صلاة العصر رأيت المهندس يأتينى لاهتاً و يخبرنى بأن التربة قد انسدت قبل أن تصل المياه إلى أرضى. طلبت منه تنظيفها فأخبرنى أن هذا ليس من حقنا، بل يجب تقديم طلب أولاً للموظف المختص، ثم يلى ذلك سلسلة طويلة من الإجراءات المعقدة. طلبت منه

المشورة فلم أجدها. بعد يومين شبت النيران فى مخزن السماد و هو يحتوى على مواد كيميائية خطيرة، و قامت وزارة الزراعة بالاشتراك مع وزارة البيئة برفع قضية ضدى. لم أجد أمامى بدأ من دفع مبلغ ضخم على سبيل الغرامة.. انتهزت علاقاتى الكثيرة فالتحقت بالعمل قبطاناً على سفينة أجنبية تحمل علم بلادكم، أخذت زوجتى معى. خرجت من بلادنا بأوراق غير صحيحة، لكنها دخلت بلادكم بأوراق صحيحة تماماً.

مسح "كرم" وجهه المتقلص ببديه فى عصبية كأنه يحاول محو هذه الذكريات المريرة. ارتجفت ساقه اليسرى بشدة بين يدى "ليزا" فنظرت إليه متسائلة عما يقصد بهذه الحركة، فقال:

- إنها حركة لا إرادية من تأثير عقاقير الأعصاب الكثيرة التى تناولتها فى هذه الأيام.

(6)

الأرض تكسوها الخضرة فى بهاء. الشمس ترسل أشعتها الذهبية فى صفاء و نقاء، التلال تحاصر المكان من كل صوب.. يجلس "تونى" يتأمل الطبيعة فى رهبة و هو يربت على ظهر حفيدته. أشارت الصغيرة إلى الأمام فرأى "كرم" واقفاً أعلى الجبل بطوله الفارع و عضلاته البارزة مصوباً السلاح نحوهما.. تلفت "تونى" حول نفسه فى فزع فاكتشف رجلاً آخر رابضاً فى جهة اليسار يصوب السلاح، الثالث من جهة اليمين بينما يأتى الرابع من الخلف.. ثم ظهر رجال كثيرون يصطفون الواحد بجانب الآخر، أصبحوا متلاحمين متلاصقين حتى أن نسمة الهواء لا تجد لها مكاناً بينهم. ثم راحوا يهبطون من الجبال يحكمون الحصار. دبات أقدامهم تدوى كالرعد، عندما اقتربوا اكتشف أنهم جميعاً يشبهون "كرم"، كأنهم نسخاً متكررة منه، جميعاً يصوبون السلاح نحوهما، أحكموا الخناق حتى اختفى ضوء الشمس، أصبح الظلام دامساً و الهواء شحيحاً، صرخت "لورا" فى رعب فإنطلق الرجال يقهقهون فى سخرية.

استيقظ "تونى" ليجد نفسه فى فراشه، مسح عرقه المتساقط من وجهه بغزارة ثم راح يتأمل ابنته و حفيدته و هما نائمتان على فراء الأغنام.

عندما شعر بكل عضلات جسده ترتجف و هو يجاهد محاولاً الوقوف بصعوبة بالغة أدرك أن الشيخوخة تحاصره.. الموت قادم لا محالة.. يحزنه كثيراً إحساسه بأنه قد كتب عليه الموت هنا وحيداً ذليلاً بينما كان يتخيل جنازته فاخرة مهيبية، حيث يشيع جثمانه أكبر رجال الدولة و أثرى أثرياء العالم...

جلس أمام بوابة الكهف لاهثاً يتأمل السماء السوداء القاتمة، من بين السحب بدا له طيف صديقه "دامون" بوجهه المستطيل و جسده النحيل، الذكاء يشع من بريق عينيه، الهدوء و الرصانة واضحتان فى كل حركاته.. ابتسم لوجه صديقه و هو يتذكر أشياء كثيرة تدل على صدقه و إخلاصه.. عندما أصبح "تونى" مديراً فى إحدى إدارات البنك الدولى سعد "دامون" كثيراً بصديقه و أصبح يتفاخر به أمام الناس. بهذه المناسبة قدم له زهرية من

الخزف الصينى الأصيلى تساوى بضعة آلاف من الدولارات بينما قيمتها الحقيقية لا تقدر بثمن، و بعد عدة أشهر بدأت مشاكل المنصب الجديد تحاصر "تونى" المسكين من كل صوب، كادت أعصابه تنهار بعد أن فقد كل شعور بالمتعة و البهجة.. فإذا بصديقه يدعوه لتناول العشاء فى بيته يوم السبت...

فى بيت "دامون" كان كل شىء منظماً بدقة متناهية.. قصر ضخم مقام على أطراف المدينة، محاط بالحرس من جميع الأطراف، لا يملكون أسلحة أو طلقات نارية، بل أجهزة تنصت غاية فى الدقة و الحساسية. من المستحيل أن يعلم أحد بما يجرى فى الداخل سوى القلة القليلة، أو الصفوة المختارة من "دامون" نفسه...

انفتح الباب الإلكتروني على حديقة واسعة مترامية الأطراف، وقف "تونى" مذهولاً و هو يرى أمامه فتاتين غاية فى الجمال و الروعة، لا ترتديان سوى الملابس الداخلية فقط، يقدمان الورود إليه و على شفثيهما ابتسامة ترحيب و إعجاب كأنما يستقبلان أميراً منتصراً.. ثم تقدمتا أمامه تقودانه عبر ممرات الحديقة بينما يسير "تونى" خلفهما يتأمل الجمال مسحوراً.. على أبواب القصر كان "دامون" فى انتظاره مبتسماً بين تماثيل النمر المنحوتة من أفخر أنواع المرممر.. تساءل "تونى" مازحاً عن هاتين الساحرتين فقال "دامون" و هو يغمز بإحدى عينيه:

- إنك فى منصب هام و حساس، يجب عليك إراحة أعصابك من حين لآخر حتى تتمكن من تأدية واجبك على أكمل وجه.

ما أن جلس الصديقان حتى تقدم خادمان أسمران يدفعان أمامهما عربة صغيرة مطرزة بالذهب و الفضة، عليها أفخر و أعتق أنواع الخمور. راح الخادمان يعدان الكأس الأول فى أدب جم، و بعد قليل صدحت أنغام الموسيقى الكلاسيكية الرائعة التى يعشقها "تونى" منذ نعومة أظافره، ثم ظهر أربع فانتات عاريات يرقصن فى دلال و سحر كأنهن ملائكة الجنة...

بعد أن فرغوا من الشراب و بدأت الأحشاء تتلوى جوعاً، أشار "دامون" بيده إلى حجرة الطعام. تقدم "تونى" و هو يشعر بالأرض تحت قدميه كأنها مصنوعة من الإسفنج. كان على باب الحجرة خادمان آخران يفتحان لهما الباب. قال "تونى":

- لا شك أن كل هؤلاء الخدم يكلفونك الكثير.

قال "دامون" فى هدوء:

- ليس كثيراً كما تتخيل، لأنهم جميعاً هاربون من المجاعات فى بلادهم و لا يملكون حق الإقامة هنا فإن رواتبهم أقل من عشر الرواتب التى تعرفها.

فى حجرة الطعام كانت الرائحة الذكية تزكم الأنوف، على المنضدة غزال مشوى محاط بأطباق الأرز و المكرونة و كل أنواع المشهيات. قال "دامون" و هو يشير إلى الغزال:

- لقد أتيت به من الشرق خصيصاً من أجلك.
قال "تونى" و هو يتأمل الغزال بنظرات شرسة:
- ذقته مرة واحدة فقط أثناء إحدى رحلاتى، و قد راق لى جداً.

بعد العشاء تمدد الصديقان على المقاعد الوثيرة فى الشرفة. أتى الأربيع راقصات العاريات و رحن يدلكن جسدى الرجلين حتى شعر "تونى" بأن كل حواسه قد خدرت، ثم قال كأنه يعيش فى حلم جميل:

- ما أجمل الحياة بعيداً عن المشاكل و المناصب.

سأل "دامون" و هو يشاركه الحلم:

- ما الذى يضايقك يا صديقى؟

قال "تونى" و هو يستسلم تماماً لأيدى الحسنات:

- نحن مجبرون على تقديم معونات سخية إلى بلدان أفريقيا التى تعاني الجوع و الجفاف و المرض. و إن لم نقدم هذه المعونات سنصبح فى نظر العالم قساة القلوب و بعيدين عن المدنية و الحضارة. المدير السابق لى عندما قدم معونات كثيرة ثار عليه رجال الدولة لتبديد أموالنا، ثم اتهموه بالخيانة و دبروا له المكائد و خُلع من منصبه دون أن يدافع عن نفسه، و أنا أخشى مواجهة المصير نفسه.

ضحك "دامون" قائلاً:

- يجب أن تكون واسع الحيلة، هذا المنصب يحتاج إلى كثير من الدهاء.

- كيف؟!

اعتدل "دامون" فى جلسته قائلاً:

- بصفتى رئيساً للغرفة التجارية أعرف رجال أعمال كثيرين لديهم مخزون ضخم من اللحوم، و هم مستعدون لبيعه دون مقابل لأن هذا المخزون على وشك الإنتهاء من تاريخ الصلاحية فى خلال شهر أو شهرين على حسب القوانين المدنية، لكنه فى الحقيقة حسب القوانين العلمية صالح تماماً لمدة عام كامل بشرط حسن التخزين و النقل.

هتف "تونى" كأنه غريق عثر على منقذه:

- أرجو معرفة هؤلاء التجار.

ابتسم "دامون" قائلاً:

- سأعرفك بهم، و سأطلب منهم عمولة مناسبة لك، كما سأقدم طلباً لوزارة الإقتصاد لتقديم شهادة تقدير خاصة باسمك لأنك ستكون بذلك قد قدمت معونات ضخمة جداً دون أن تكلف الدولة شيئاً.

سأل "تونى" فى انتباه:

- و إن انكشف الأمر؟

قال "دامون" مبتسماً من سداجة صديقه:

- إنه تبادل تجارى بين الحكومات. و الحكومات لا تكشف أسرارها أبداً.

شعر "توني" بصوت أقدام تتحرك بجواره، فإذا بها "ليزا" تحديق في أبيها بشفقة ممزوجة بالقلق. سألته عن سبب سهره حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل، فراح يقص عليها هذا الكابوس الثقيل الذي يكتم أنفاسه، تذكرت إرتجافات أرجل "كرم" العصبية ووجهه المتقلص، تأكدت من مدى خطورة وجود سلاح بحوزة هذا المريض الأرعن فأرشدت أباه عن مكان الممر الترابي الذي عثرت عليه اليوم مصادفة...

بعد غروب شمس اليوم التالي، و هم مجتمعون بعد تناول العشاء، انصرف "توني" معذراً لإرهاقه الشديد، بينما راحت "ليزا" تشاغل "كرم" في حديث طويل مسهب عن بعض النباتات الموجودة حولهم. بعد بضع دقائق جلجلت صرخات "توني" تدوى في الجزيرة و هو يجري في فزع أمام الكلاب المسعورة إلى أن قادته أمام القرصان...

(7)

حرص "توني" و ابنته على الاستيقاظ قبل سطوع الشمس حتى يخرسا صرخات "كرم" التي تجلجل في جنبات الجزيرة و هو يسوقهم إلى العمل مثل العبيد.. بينما كانت الصغيرة مسترسلة في نوم عميق مبتسمة و هي تنادى قطتها البيضاء الأليفة.. أيقظتها أمها برفق مشفقة عليها فانتفضت الصغيرة واقفة جاحظة العينين في انتباه شديد كأنها جندي في ميدان القتال ينتظر صدور الأوامر.. راحوا يتبادلون النظرات في صمت بينما كانت نسמת الصباح الباردة ترتع في الكهف فترتجف الأجساد..

لقد اعتادوا هذا الصمت المطلق منذ ثلاثة أيام، منذ أن فشل "توني" في العثور على السلاح.. في هذه الليلة السوداء اختفى "كرم" ليضع لحظات ثم عاد مصوباً البندقية نحو "توني" الغارق في الوحل. برقت عينا العجوز في ذعر فضحك "كرم" في هستيريا، ثم راح يحطم البندقية في عصبية و جنون إلى أن جعلها قطعاً صغيرة لا تساوى شيئاً بينما راحت الكلاب تزمجر و هي تلتف حوله تعلق أقدامه كأنها تحس بنشوة الظفر. ألقى نظرة خاطفة على الصغيرة المرتجفة ثم انصرف لا يلوى على شيء إلى أن اختفى في ممرات الجبل الغارقة في ظلام دامس.

فى الصبأه انهملك "تونى" فى العمل يائساً من كل شىء؁ بعد غرق الزورق أصبأه الأمل الوحىء فى السلاح. البندقىة هى الشىء الوحىء الذى ىستطىع بها إخضاع هذا القرصان المآنون لإآباره على التعاون للوصول إلى شاطىء النآة.. عندما أخبر ابنته بذلك ظهرت الكلاب الشرسة تزمآر فى قوة و عنف ىتوسطهم "كرم" فارع الطول مفتول العضلات كأنه مروض للأسود؁ آءق فى عىنىى "تونى" آاضباً و هو ىقول:
- إن كنت ترى أن البندقىة هى الأمل الوحىء فأنت "تونى" عبد السلاح؁ لكن أنا "كرم" عبد الله. أىنا الأقوى؟

فى المساء امنتع عن تناول العشاء معهم لأنه لا ىطىق رؤىة عبد السلاح؁ فهمس "تونى" فى أذن ابنته و هو ىتلفء حول نفسه:
- من المؤكد وآوء عصابة كبرىة هنا؁ بعضهم ىتلصص علینا و ىبلغه أخبارنا أولاً بأول.

بعد قلىل هبب "كرم" محاطاً بالكلاب الشرسة المزمآرة ثم قال متآدباً:
- لا ىوآء هنا أءء آىرى. أنا لست آباناً لكى أآذب علىك؁ الآزىرة و كل من علىها ملك آاص بى؁ و من لم ىطع أوامرى فلىرحل فوراً.

منذ هذه اللحظة امنتعوا آمىعاً عن الكلام؁ أصبأوا ىتبادلون النظرات فى صمت مطلق كأنهم فقءوا النطق؁ و إن آأكدت "لآزا" أنهم ربما سىفقءون المنطق نفسه عما قرىب.

انطلقوا إلى العمل. رآءت "لآزا" تسقى النباتات فى صمت؁ ثم انهمكت فى تقلىم أشآار الزىتون بنشاط محموم آتى لا تسمح لهذا القرصان بانآقآء عملها أو آوآىه أى لوم. بعد أن فرغت من عملها فى وقت الظهىرة آلست آت أشعة الشمس الءافئة تفكر فىما سىكون علىه مستقبل ابنتها.. سمعت زمآرة الكلاب المتوحشة فانآفضت واقفة آبآ فى كل آآاه تترقب ظهور "كرم" فى آزر شآىء. آتاها من الآلف ىرمىها بنظراته النارىة؁ التفتت الكلاب حولها تتشم الرائآة فى فضول فتآلصت كل عضلات آسءها فى رعب. صرخ "كرم" صرآة واءة جعلتهم ىفترشون الأرض فى هءوء.. ساقها أمامه صاءءاً ممرات الآبل إلى أن وصلا إلى الكوآ.

ءفعها إلى الءاآل بعنف. طلب منها ترتيب الكوآ و تنظىفه ثم غسل ثىابه.. ارآبكت؁ فهى لم تفعل ذلك طوال آىاتها؁ لكنها آضعت آت وطأة نظراته المتآءىة. لآظت بىن الأوانى الفآارىة و الملابس المتسآة قطة من آشب الأشآار على شكل مستطىل مرسوم علىها صورة طفل صآىر أسمر ىبدو كأنه ابنه "آالء" ىآرآر آلفه آملاً ذا سنامىن. هذه اللوآة جعلت الكوآ ىبدو كأنه وكرراً لفنان مرهف الشعور؁ لكنه فنان بوهمى آائرا على قانون الآىة؁ رافضا الإنسانىة الراقىة؁ ىفضل الآىة على فطرته الساءآة بعىءاً عن الناس..

آلس "كرم" ىرقبها فى آشف و هى آآاول آاهءة كنس الأرض؁ ثم رآآ ىتأمل البحر المترامى من آلال النافذة آتى بءا علىه الهءوء. إستآمعت شآاعتها تسأله:

- هل صحيح إنكم ترون أن الضرب هو الأسلوب الأمثل للتعامل مع النساء؟
التفت إليها شارداً كأنه قد تنبه إلى شيء لم يخطر بباله من قبل:
- ليتنى ضربتها حتى الموت.

سألت في دهشة:

- أتندم لأنك عاملتها برفق؟

قال نادماً:

- نعم. لو كنت أنا الذى قتلتها لارتحت.

- كيف؟

استدار مرة أخرى إلى البحر ثم قال ساخراً في مرارة:

- عندما وصلت إلى بلادكم كان لدى أمل كبير بالرغم من الضباب و الأمطار،
بالرغم من الثلوج و برودة الجو، تعجبت من هذا الأمل بالرغم أن الكآبة كانت تخنقنى فى
بلادنا المشمسة طوال أيام السنة.

بادرت فى تحد و هى ترتب فراء الغنم:

- لأننا نعيش فى ظل قانون عادل، كل منا يعرف حقوقه و واجباته جيداً.

واقفاً قائلاً فى أسى:

- هذا صحيح. لذلك شعرت أنه من الممكن إنجاب طفل آخر و تربيته بأسلوب راق
مهذب، خاصة بعد أن أصبحت قبطاناً لسفينة عملاقة مزودة بكل وسائل الأمان، تشق البحر
فى ثقة و جبروت حاملة علم بلادكم. فى ذات يوم تعاقدت شركتنا على نقل الأسلحة و
المعدات العسكرية، و كان هذا طبعاً يتم فى سرية مطلقة حتى أصبحنا لا نعرف مواعيد
الإبحار و موانئ الوصول إلا فى آخر لحظة، نتيجة لذلك اضطررت للبقاء على السفينة
لمدة عام كامل. عدت بعد ذلك إلى زوجتى "جواهر" فلم أجدها، سألت عنها الجيران لكن
عندكم كلٌ منعزل على نفسه و لا يعرف اسم جاره. طفت فى المستشفيات و أقسام البوليس
دون جدوى، بعد أن استبدى اليأس قررت نسيانها إلى الأبد. دخلت أحد الملاهى الليلية،
شربت حتى الثمالة و أكلت بشراسة. فجأة رأيتها ترقص على المسرح. كانت عارية تماماً
تحاول إثارة الشهوات بشتى الطرق، إلتقت عيوننا أكثر من مرة لكنها لم تعرفنى فأدركت
أنها واقعة تحت تأثير المخدر أو الخمر. تركت الملهى خائر القوة، ليتنى قتلتها.

سألت فى تشف و هى تغسل ثيابه:

- هل كنت تحبها إلى هذا الحد؟

ابتسم ساخراً:

- هل تصدقين أنى أحببتها قبل أن أراها؟

ضحكت و أكمل "كرم":

- فى ذلك الوقت ظهر تحت إبطى كيس دهن. كان لا بد من شطف الدهون عن طريق
عملية بسيطة بمساعدة مخدر موضوعى. أغموا عيني حتى لا أرى المعدات الدقيقة التى
يعملون بها فتثير قلقى و ينتهى مفعول المخدر بسرعة. فى أثناء العملية سمعت صوتها،
عندما تألمت شعرت بيدها تربت على صدرى فى رفق و رحمة. ثم رأيتها بعد ذلك. كانت
فى السنة النهائية من دراسة الأمراض الجلدية. من لمسة يدها شعرت بمدى رققتها و

طهارتها. عندما رأيتها كانت فى غاية الجمال و الروعة. اقترب كل منا للآخر رغماً عنا إلى أن تزوجنا.

شعر "كرم" بصوت حركات خارج الكوخ، التفت ليجد "لورا" تتقدم بخطوات متعثرة وجلة. أشار لها بالدخول. امتعضت الصغيرة لمشهد أمها و هى تغسل ثيابه القذرة، التفتت تتأمل كوخ القرصان حاكم الجزيرة، رأت صورة الطفل الأسمر الذى يجر الجمل فسألت فى خوف:

- هل يوجد هنا جمال؟

أجاب بهدوء:

- لا يوجد هنا جمال.. لكن لماذا هذا السؤال؟

أجابت الصغيرة مرتجفة:

- ألا يكفى الكلاب الشرسة حتى نواجه الجمال المتوحشة؟

جلس "كرم" أسفل النافذة و هو يقول:

- الجمل حيوان طيب مسالم جداً، لكنه لا ينسى أبداً من يسيء إليه، و من المستحيل أن يعرض الجمل أحداً إلا إذا ضربه.

صمتت الصغيرة لا تجد شيئاً تقوله ثم طلبت السماح لها بالخروج إلى البحر قليلاً بعد أن أكدت انتهاء عملها. شعر "كرم" بما تعانيه الصغيرة من ضيق فسمح لها بعد أن حذرهما من محاولة السباحة لأن البحر فى هذا الوقت من السنة فى هذا المكان ينقلب على نفسه فتصبح الدوامات شديدة.

انصرفت الصغيرة بينما راح "كرم" يتأمل صورة ابنه و هو يجر الجمل ثم ابتسم

قائلاً:

- هل تصدقين أن الجمل بالإضافة إلى صبره و جلده فإنه شديد الحياء؟

قالت فى تدمر و هى تضع الثياب المغسولة على الحبل:

- لا أعرف.

قال مبتسماً سعيداً بتدمرها:

- إنكم تعتقدون أنه من حق الرجل ملاطفة محبوبته و تقبيلها فى الحقائق العامة أمام

الناس، لكن حياء الجمل يمنعه من ذلك تماماً. فى موسم الزواج عندما لا يجد الأنثى التى

تأنس إليه يترك القطيع هارباً إلى الصحراء فى صمت حزين إلى أن يعثر على الأنثى التى

تألفه و يألفها أو يهلك وحيداً فى كبرياء و شموخ.

سألت ساخرة:

- هل كنت راعى إبل من قبل؟

أجاب بصدق:

- ليتنى كنت راعى إبل فى عمق الصحراء لا يدرى شيئاً مما يحدث فى المدن الكبيرة.

ثم سألها ساخراً:

- ما سبب إصابة يد "تونى"؟

قالت فى نفور:

- عضة جمل متوحش عندما كان فى مهمة فى الشرق.

قال ضاحكاً:

- الجمل العربى لا ينسى أبداً من يجرح كبريائه. إنه لم يعرض "تونى" إلا بعد أن

ضربه بقسوة و غلظة.

نظرت إليه فى ذعر. كيف عرف هذا.. و فجأة جلجت صرخات الصغيرة فى لهفة:

بابا.. بابا..

(8)

جلست "لورا" وحيدة على الشاطئ بجوار قبر أبيها تتأمل الأمواج المتعاقبة على الرمال برفق ثم تتسحب فى هدوء.. بالرغم من هذه الوداعة و المياه الشفافة إلا إنه قتل والدها، و بعد أن قتله نهشه إلى أن اختفت ملامحه تماماً. لم يستطع أحد التعرف عليه إلا من خلال السوار الفضى الذى كان يحيط بمعصم يده اليمنى.

بعد أن تمت عملية الدفن بالأمس انصرف كل منهم إلى حال سبيله فى صمت. شغل كل منهم بأفكاره و أحزانه و نسوا الصغيرة تماماً كأن ليس لها وجود بينهم.. الشمس تميل نحو المغرب لكنها لم تتناول إفطارها حتى الآن، أحشاؤها تتلوى جوعاً دون أن تشعر بها أمها أو جدها. إنها لم تتعود هذا الإهمال أبداً من قبل.. كانت الطفلة الوحيدة المدللة فى الأسرة كلها، كما أنها كانت مدللة فى المدرسة و النادي و فى أى مكان نظراً لمكانة جدها الإجتماعية الرفيعة و مكانة أبيها الضابط الذى يخولون له المهام الدقيقة الصعبة لثقافته الواسعة...

شعرت بالمرارة فى حلقها عندما تذكرت "هوجنو" الذى كان طباخاً فى قصر جدها. يعاملها بمنتهى الرفق و الحنان، الابتسامة لا تفارق شفثيه و هو يناديها بالأميرة الصغيرة.. يصنع لها أشهى الوجبات، يبدع و يشكل فى أطباقها المفضلة حتى تصبح وفقاً لذوقها الخاص، ثم يطعمها بيده و هى تتابع أفلام الكارتون ضاحكة من كل قلبها.. أحبته، أصبحت تكن له احتراماً كثيراً، و منذ شهرين لاحظ صديق جدها "دامون" ذلك فعاتبها برفق

قائلاً إن "هوجنو" ليس إلا خادماً في هذا القصر. عندما همت بالدفاع عنه قال "دامون" محذراً: إنه أصفر!...

تعجبت الصغيرة من هذا التحذير. "هوجنو" لم يكن أصفر، بل أبيض البشرة، ضئيل الحجم حتى أنه يبدو قزماً بجوار جدها، دقيق الملامح، له عينان ضيقتان سوداوان و شعر أسود غزير ناعم كخيوط الحرير.. استفسرت من أبيها الذي يمضى وقتاً طويلاً في المكتبة فقال لها:

- السيد "دامون" يقصد أنه لا يعتبر أبداً من أفراد الأسرة.

دخل جدها الذي كان يسمع حديثهما فأكمل قائلاً بفخر ليغرس في نفس الصغيرة الاعتداد بالنفس:

- إننا أصحاب الدم الأزرق الخالص بينما "هوجنو" ينتمي إلى العالم الأصفر.

هداها عقلها الصغير أنهم ربما يقصدون أن دم "هوجنو" أصفر مخالف لدمائهم. لكنها اكتشفت بعد ذلك عندما جُرحت ابنة عمها و هي تلعب في المدرسة كان دمها أحمر، و عندما جرح "هوجنو" بعد أسبوعين أثناء عمله في المطبخ كان دمه أيضاً أحمر اللون.. حارت الصغيرة في موضوع تفسير الألوان لكنها لم تستطع أن تفهم شيئاً...

رأت ظلالاً تتحرك بجوارها، التفتت لترى "كرم" قادماً بطوله الفارع، أشاحت بوجهها تتأمل البحر في صمت. عندما وضع يده على كتفها مواسياً انفجرت الصغيرة في بكاء عنيف.. مسح شعرها برفق بينما كانت كل عضلات وجهه ترتجف. بعد أن استعادت هدوءها اصطحبها معه إلى رقعة من الأرض منبسطة بين الجبال، ثم أشار عليها مبتسماً بزراعة هذه الأرض بالورود التي تفضلها..

مسحت دموعها و هي تتجول معه في أرجاء الجزيرة بحثاً عن عقل النباتات المزهرة الملونة، بعد أن تمت عملية الغرس في المكان المناسب عاد بها إلى الكهف حيث كانت "ليزا" تجلس شاردة تتأمل سوار زوجها بعد أن أصبح في معصم يدها. لم تشعر بهما،

فهمست الصغيرة فى أذن "كرم" متسائلة: هل أمى أيضاً ستموت؟.. التفتت "ليزا" ترقبهما بنظرات باردة غير مبالية بشىء.. ربت "كرم" على كتف الصغيرة برفق، ثم همس فى أذن "ليزا": لا تتركى الصغيرة وحدها على الشاطئ..

بيد أنه فى اليوم التالى، بعد الانتهاء من تنظيف الحظيرة تسلتت "لورا" بين الأشجار هاربة إلى قبر أبيها على شاطئ البحر. لقد ضاقت بهم جميعاً، لا تجد راحتها إلا فى هذا المكان. لقد أصبحت أكثر اقتراباً إلى أبيها من ذى قبل..

جلست بجوار القبر تلوم نفسها و تعاتبها لأنها تشككت ذات يوم فى حبه لها.. كان ذلك منذ بضعة أشهر، عندما علمت بأنه يعد نفسه للسفر. طلبت منه أن يأخذها معه. لكنه رفض لعدم وجود مدارس مناسبة هناك. ثم أكمل مؤكداً: إننى ذاهب إلى القارة السوداء..

انقبض قلبها من هذا الإسم الكئيب. تخيلت مدينة بأكملها تعيش فى ظلام دامس، الأشباح ترتع فى نشاط محموم لتثير الذعر بين الناس بينما الشرر يتطاير من عيونهم. لكنها بالرغم من ذلك كانت تتمنى البقاء إلى جوار أبيها فى أى مكان مهما كان.. عندما ذهبت لوداعه فى المطار كان صديق جدها "دامون" هناك، احتضن أباهما بحرارة ثم قال مشجعاً بينما الابتسامة الوداعة لا تفارق شفثيه:

- لقد أنفقت الكثير حتى أحصل على مناجم الماس. يجب أن تفعل كل ما فى استطاعتك لحمايتها من هؤلاء البربر.

شعرت الصغيرة باقتراب "كرم" منها. اصطحبها معه صاعداً الجبل و هو يعاتبها برفق لإهمال النباتات التى غرستها بيدها بالأمس. بعد سقى النباتات أخذها معه داخل الكوخ ليمنحها ثوباً مصنوعاً من الصوف و هو يقول:

- فى المساء تنخفض درجة الحرارة.

تلقفته الصغيرة سعيدة و هى تتأمل اللوحة المرسومة على الجدران الخشبية ثم سألت:

- هل يوجد فى بلادكم جمال كثيرة؟

- نعم.

فكرت قليلاً ثم سألت مستنكرة:

- لماذا لا يوجد لديكم شوارع و سيارات و مدن مثلنا؟

انفجر "كرم" ضاحكاً من سذاجتها حتى اغرورقت عيناه بالدموع:

- لأنه يوجد لدينا ما هو أهم و أخطر من كل ذلك . لدينا كل الثروات و الكنوز.

سألت الصغيرة ضاحكة دون أن تفهم شيئاً كأنما انتقلت إليها عدوى الضحك:

- إذا كان لديكم كل الثروات فلماذا تعيشون فى الظلام وسط القانورات و تهاجرون

إلينا.

ضم وجهها بيديه و هو يتأمل صفاء عيونها و وداعتها، بدت له كأنها ملاك رقيق هبط

إليه من السماء. ثم قال مشفقاً:

- لا تشغلى بالك بكل ذلك. فقط اهتمى بحديقتك حتى تنبت لك أزهاراً زاهية.

عادت الصغيرة إلى كهفها قبل غروب الشمس. فى المساء حملت أمها الطعام صاعدة

الجبل مثل كل يوم. رماها "كرم" بنظراته النارية معاتباً لإهمالها الصغيرة. فقالت:

- لم أعرف أنها ذهبت للبحر إلا بعد أن هبطت من عندك.

نهرها بعنف حتى سقطت على الأرض، ثم قال فى تحد:

- أنت لا تعرفين ماذا يفعل البحر مع الإنسان الحزين.

إعتدلت جالسة على صخرة و هى تتساءل فى تحد يشوبه الخوف:

- ماذا يفعل؟

قال بينما كل عضلات وجهه متقلصة:

- يسحرها بغموضه مثلما فعل مع الحاجة "وفاء".

- من تكون الحاجة "وفاء"؟

التفت شارداً إلى البحر ثم قال:

- قابلتها مصادفة بجوار الفنار. كان هذا هو المكان الذى أفضله كثيراً أنا و صديقى

"باسم". أنا أحلم بأن أجوب هذا العالم الفسيح المترامى بينما "باسم" يفكر فيما يعنيه هذا

الفنار بالنسبة للبحار، ثم ينهمك فى الرسم و هو يحدثنى فى تحليلات كثيرة فيما يبعثه هذا

المبنى العتيق فى النفوس الهائمة الشاردة. كانت الحاجة "وفاء" تشاركنا عشق هذا المكان،

لا أحد يشعر بها و هي لا تشعر بما يدور حولها.. امرأة عجوز، التجاعيد تفترس وجهها ثم تلتف حول رقبتها، تجلس في هدوء و صمت تتأمل البحر بينما خصلات شعرها الأشيب الخفيف تتطاير مع الهواء.. عندما عاوتها أول مرة في عبور الطريق شعرت بمدى ضعفها من خلال ارتجافات يدها المتجعدة. ربتت على كتفى و هي تشكرنى فلمحت في عينيها صفاءً رهيباً بالرغم من كل التجاعيد. منذ هذا اليوم أصبحت هناك علاقة غريبة بيننا. بالرغم من أنها فى مثل سن أمى إلا أننى لم أشعر نحوها أبداً بهذا الشعور. حدثتني عن زوجها القبطان الذى خرج إلى البحر منذ ثلاثين عاماً، انشقت به السفينة نصفين فى عرض المحيط و لم تستطع فرق الإنقاذ الوصول إليهم.. رأيتها و هي تلقى بالورود في البحر بمناسبة ذكرى يوم وفاته. إنها تؤكد شعورها به إلى جوارها فى كل لحظة. عندما توطدت العلاقة بيننا اصطحبتني إلى منزلها فى وسط المدينة. رأيت بجوار الباب زوجين من الأحذية الرجالي، قالت إنها أحذية زوجها القبطان، هو الذى تركهم فى هذا المكان قبل سفره الأخير، لم يطاوعها قلبها على تبديل أى شىء فى المنزل منذ ثلاثين عاماً. تلمع أحذيته من حين لآخر ثم تعيدها إلى المكان نفسه.

ابتسمت "ليزا" و هي تقول فى أسى:

- إنها فعلاً الحاجة "وفاء".

ضحك "كرم" فى هستيرية و عظمة ثم قال:

- ليس هذا اسمها الحقيقى. أنا الذى أطلقت عليها هذا الإسم و فرحت هى به. هل

تصدقين أننى لا أعرف اسمها الحقيقى حتى الآن؟

ضحكت "ليزا" ساخرة ثم حملت أوانى الطعام الفارغة هابطة إلى الكهف حيث رأت

"تونى" مستلقياً على فراء الماعز، كان ينام على جانبه الأيسر، يضم ساقيه إلى صدره كأنه

يحاول العودة جينياً فى بطن أمه...

(9)

اصطبغت يداها بلون الزيتون. تقلصت كل عضلات جسدها من الإرهاق بالرغم من أننا مازلنا فى الساعات الأولى من النهار و العمل كثير و شاق. انفجرت حبات الزيتون بين

أصابعها فاختلطت بقايا الزيت بالعرق الذى سال أنهاراً لزجة فى ثنايا جسدها.. سقطت خصلة من شعرها فرفعتها بيدها الملوثة دون أن تشعر بالتأفف أو التقزز من نفسها. لقد استقر فى ذهنها أن من يعيش تحت حكم هذا القرصان السفاح لا بد أن يفقد آدميته حتى يستطيع الحصول على لقمة العيش التى تحفظ له حياته فقط دون أدنى درجة من درجات الكرامة.

استبد بها اليأس و هى ترى أباهما يفرغ سلته المحملة بالزيتون. أصبحت تسمع أنفاسه اللاهثة المتحشجة من بعد عدة خطوات كأن هناك صخوراً ثقيلة تجثم فوق صدره تكاد تكتم أنفاسه فى أية لحظة.. تأملت جبل الزيتون المطلوب عصره اليوم فاكتشفت وجود حبات كثيرة صغيرة فتنهدت و هى تقول فى صبر نافذ:
- الحبات الصغيرة لا تصلح للعصر، و "كرم" لم يأمر بجمعها اليوم.

انصرف "تونى" فى هدوء كأنه لم يسمعها، راح يترنح بخطوته الثقيلة صاعداً السلم الخشبي ليجمع كل الثمار الموجودة دون أى تفكير أو تمييز. منذ الأمس أصبح قليل الكلام كثير الشرود. حتى أثناء تناول طعام الغداء لم يتفحص الأطباق و هو يتشمم الرائحة باشتهاء كعادته، بل جلس يزدرد طعامه فى صمت.. لاحظت "لورا" تورم أصابعه و قذارتها من أثر جمع الثمار فسألته مستنكرة: لماذا لم تغسل يديك؟ لم ينطق بكلمة واحدة، بدا كأنه لا يتذوق و ربما لا يدرى ما يأكله...

أشارت "ليزا" إلى ابنتها بالصمت. يبدو أن الشيخوخة قد أحكمت حلقاتها حوله حتى عزلته عن هذا العالم الخارجى. انطفاً بريق عينيه، اضمحل حجمه إلى النصف تقريباً، أصبحت التجاعيد غائرة فى وجهه و حول رقبتة، حاجباه مرفوعان منفوشان فى ذهول كأنه قد أدرك أخيراً حجم الكارثة.. إنها لكارثة حقاً، ماذا ستفعل هى و ابنتها مع هذا القرصان إذا مات "تونى"؟!.. احتمالت الموت كثيرة بعد أن تجاوز السبعين من عمره. فى ظل حكم هذا الهمجى يكون الموت أقرب من الحياة بالنسبة للشباب فكيف يكون الحال مع هذا العجوز؟...

ضاقت الصغيرة بهذا الصمت الثقيل فانصرفت صاعدة ممرات الجبل لتروى حديقته الصغيرة.. بينما انهمكت أمها فى محاولة يائسة لترتيب الكهف و هى تتأمل "تونى" الصامت كتمثال من الصخر، ثم انفجر فى ضحك هستيرى و هو يضرب فروة رأسه بيديه.. قبيل غروب الشمس ألقى نظرة عابرة من كهفها فرأت "تونى" بجوار عين الماء يحرك يديه فى انفعال شديد كأنه يتحدث إلى شخص ما لا يراه إلا هو.. أدركت من تعبيرات وجهه أنه ربما يتحدث إلى القرصان الذى تخيله أمامه فراح يسبه و يلعنه.. جرت نحوه فى قلق، سألته عن الشخص الذى كان يتحدث معه فأخبرها بأنه كان يتناقش مع أبيه!..

عادت "لورا" من حديقته تقفز فى خفة و نشاط، الابتسامة على شفثيها و فى عينيها صفاء غريب، تحمل فى يدها علبة من الصفيح، عندما سألتها أمها قالت الصغيرة مبهورة الأنفاس:

- إنه شمع مصنوع من دهون الحيوانات أهدها لى "كرم" حتى لا أخشى شيئاً أثناء الليل.

استبشرت "ليزا" خيراً لحصولهم على الشمع، فحملت الطعام بعد الغروب صاعدة الجبل بنفس راضية و هى تستمتع برائحة الورود مع نسيمات الليل الأولى. رأت "كرم" جالساً فوق مقعده الضخم المنحوت فى الحجر كأنه ملك متوج فى انتظار جاريته لخدمته ثم تسرى عنه بعد ذلك كيفما يشاء إلى أن يأمرها بالانصراف. عندما بدأت فى إعداد المائدة اكتشفت جلود الأغنام المعلقة على فروع الأشجار حتى تجف. تتجمع قطرات الدم المختلطة بالملح أسفل الجلود فى مشهد مقزز. التوت أمعاؤها بشدة إلى أن تقيأت كل ما بجوفها. هب "كرم" يسأل ملهولاً فأشارت إلى الجلود قائلة:

- إنها رائحة العفونة.

رفع حاجبيه فى ذهول قائلاً:

- إننى أجفها بالملح فقط.

ثم استدرك قائلاً و هو يضحك فى سخرية:

- يبدو أنك زرت مدبغة ما من قبل.

أشارت برأسها بالإيجاب فقال هازئاً:

- لكنى أعلم أن الدباغة ممنوعة فى معظم دول الشمال.

فنظرت إليه فى احتقار قائلة:

- كانت هذه المدابع فى القارة السوداء.

عاد إلى عرشه ثم قال فى هدوء:

- ولماذا ذهبت إلى هناك؟

جلست على الأرض و هى تتحسس بطنها برفق محاولة تهدئة هذه التقلصات المؤلمة ثم قالت:

- ذهبت إلى هناك كطبيبة بيطرية فى بعثة رسمية لدراسة أحوال المحميات الطبيعية السيئة. كانت الحيوانات على وشك الانقراض بينما الحكومات السوداء الجاهلة لا تدرك مخاطر ذلك.

سأل و هو يستمتع بالأسمك المشوية التى طلبها اليوم:

- و ماذا حدث هناك؟

قالت و فى عينيها نظرات الحزن:

- تعرفت هناك مصادفة على "سوننا". فتاة فى الرابعة عشر، زنجية شوهاء و بالرغم من ذلك الابتسامة لا تفارق شفثيها فتبدو أسنانها البيضاء وسط وجهها الأسود فى غاية الغرابة. عرضت على أن تعمل كخادمة لدى مقابل بضعة دولارات قليلة لكنى اكتشفت من بريق عينيها أنه أجر ضخم جداً بالنسبة لها. وافقت على الفور لأنى كنت فى حاجة ماسة لخادمة فى مثل هذه الظروف. فى خلال بضعة أيام صارت بيننا صداقة حميمة نتيجة للطف معشرها و طيبة قلبها. دفعني الفضول لزيارة قريتها القريبة من مخيمات إدارة المحمية. كانت البرك و المستنقعات تنتشر فى أماكن كثيرة على المدقات الترابية الملتوية بين الأكواخ، الناموس يرتع فى سعادة و هو يمتص دماء البشر بشراهة و لذة. أسراب الذباب تهاجم طفلاً صغيراً يحبو بجوار الكوخ دون أن يهتم به أحد. الرائحة الكريهة تعبق

المكان بالرغم من أننى كنت قبل ذلك أتخيل الغابات مكاناً صافياً طاهراً. عندما سألت "سونا" عن هذه الرائحة قالت إنها رائحة الدباغة و هى تؤكد لى أن معظم الأهالى هنا يعملون فى هذه المهنة.. ذهلت من هذه الحياة اللا إنسانية. حاولت إقناعها بأن أملاح الدباغة تتسبب فى أمراض كثيرة بعضها قاتل. لكنها قالت لى و هى تهز كتفها فى لا مبالاة: لا يوجد أمامنا مصدر رزق غير ذلك. فى المساء دعنتى لتناول العشاء فى كوخها، تعرفت على والدها الأسود الطويل الذى يدبغ الجلود فى نفس الكوخ الذى يعيشون فيه. راح الرجل يمسح المكان الذى سأجلس فيه بحفاوة بالغة، ثم أتت الأم باسمة تضع أمامى أطباقاً كثيرة. كانوا كرماء معى إلى حد السفه، لا لشىء سوى إننى بيضاء شقراء من عالم الشمال.. و بالرغم من كرمهم جعلتتى رائحة الجلود الكريهة أتقياً كل ما بجوفى.. فى اليوم التالى أخبرت أحد زملائى بأحوال القرية، فقال بحزن شديد:

- الأهالى يتسللون إلى داخل المحمية أثناء ساعات الظهيرة حين نكون نحن جميعاً قابعين فى الخيام هرباً من الحرارة المرتفعة و الرطوبة الشديدة. يصطادون الحيوانات بشتى الطرق طمعاً فى جلودها التى يبيعونها للسائحين.
قلت فى ذهول:

- إنها أعمال إجرامية وحشية يجب منعها فوراً.

قال زميلى فى حماس:

- كانت وزارة البيئة تتهاون كثيراً فى حل هذه المشكلة، لكنها تعهدت أخيراً باتخاذ إجراءات حاسمة بعد أن هددناها بتقديم طلب بمنع المعونات إن لم يقوموا بواجبهم فى حماية الحيوانات.

و نفذت الحكومة وعدّها. بعد أسبوعين كانت البلدوزرات الضخمة تقتحم القرية و هى تدك الأكواخ فوق رؤوس الصيادين، و ماتت "سونا" تحت الأنقاض.

(10)

استيقظت "ليزا" مبهورة الأنفاس و هى تهتف: "سونا" .. "سونا" .. لم تلتقط أنفاسها إلا بعد أن اكتشفت أنها مستلقية على فراء الماعز. العرق يتفصد منها بغزارة بينما نسمات الليل الباردة تقرصها فترتجف.. تأملت إبنتها الراقدة بجوارها فابتسمت فى شفقة، تبدو و هى نائمة كملاك برىء من المستحيل أن يتحمل مشقة الحياة البدائية فى مثل هذه الجزيرة.. بيد أن عوامتها الخاصة المصنوعة من أربعة أضلاع خشبية تبعث فى النفس بعض الأمان.. صنعها لها "كرم" عندما بدأ فى تدريبها على السباحة و فنون صيد الأسماك منذ يومين.. نحت على أحد أضلاعها: "كرم" يحب "لورا" .. فرحت الصغيرة بالعوامة البدائية لطفرة فكرتها. بعد أن أفتعها بالبرهان القاطع باستحالة غرق الخشب فى جميع الظروف و الأحوال أصبحت تكن له حباً و احتراماً كثيراً و تتعامل معه مثلما كانت تتعامل مع أبيها "جورج"...

تأملت "ليزا" الكهف فى خوف. الظلال تتحرك على الصخور كأنها أشباح مرعبة. من مصدر الضوء أدركت أن أباهأ أخذ الشموع معه إلى الخارج بعد أن استبد به الأرق.. هبت إليه فى خفة، عندما رأت أباهأ دارت رأسها قليلاً ثم هوت جالسة إلى جواره فى هدوء.. قال "تونى" بينما برىق الحذر فى عينيه:

- تذكرت هذا الخائن اللعين!

سألت فى ذعر و لهفة:

- ماذا تعرف عنه؟

أجاب و هو يرقب الظلال المتحركة على الأرض:

- تعرفت عليه من خلال صاحب السفينة التى كان يعمل عليها. بعد أن هجرته زوجته و انصرفت إلى حياة اللهو و العبث أصيب بإكتئاب شديد أفقده القدرة على تمييز الألوان فلا يرى إلا اللون الأسود فقط بجميع درجاته. الأشجار سوداء، العمارات رمادية... استضافته فى منزلى لمدة شهر كامل لعل الحقائق الواسعة و الهواء النقي و الطيور المغردة تعيد إليه هدوءه. وفرت له كل سبل الراحة و الترفيه. حاولت كثيراً إقناعه بأنه جسدها و من حقها أن تفعل به ما تشاء كما أن من حقه هو أيضاً أن يفعل ما يشاء.. لكنه كان عنيداً غيبياً لا يفهم شيئاً.

سألت فى لهفة:

- و ما الذى جعل زوجته تفعل ذلك؟

ارتبك "تونى" من السؤال ثم نظر إلى الأرض قائلاً فى هدوء:

- "دامون" هو الذى تعرف عليها قبل أن أعرفها أنا بعدة شهور. كان يواسيها عن فقدان ابنها الوحيد محاولاً غرس الأمل فى نفسها، و عندما اكتشف أن غياب زوجها لفترات طويلة فى البحر من ضمن أهم أسباب حزنها أصبح يلزمها طوال الليل و النهار للترويح عنها، فتعلمت منه شرب الخمر و المخدرات إلى حد الإدمان. فى النهاية استغلها فى الاستعراضات الجنسية التى تُقام فى الملهى الليلى الذى يملكه لتمتع زبائنه الذين كانوا من أشهر السياسيين و التجار و الفنانين على مستوى العالم.

ربتت "ليزا" على ظهر أبيها و هى تقول:

- لا شك أنه عرفك منذ أول وهلة.

قال و هو على وشك البكاء:

- بالتأكيد، لكن لماذا يفعل معى ذلك بينما أنفقت على علاجه الكثير دون أى مقابل.

قالت بهدوء و فى عينيهأ برىق خاطف:

- غداً سنعرف منه الحقيقة كاملة.

بيد أنهم لم يروه فى الصباح، فانصرف كل منهم فى هدوء. فى غياب "كرم" غرقت الجزيرة فى صمت مطلق و أصبح لا يُسمع سوى هدير الأمواج المتعاقبة فى رتابة و ملل، و حفيف أوراق الأشجار فى نشوة و سعادة لبعدها عن المدينة المزدحمة الملوثة. عندما احتلت الشمس كبد السماء افترشت "ليزا" الغداء تحت ظلال أشجار الزيتون. قال "تونى" و هو يتلقت حول نفسه فى انتظار أية مفاجأة أو لحظة غدر:

- لا شك أنهم يقومون بعملية قرصنة جديدة.

تركت "ليزا" طعامها و هى تسأله فى دهشة عما يقصد، فقال و هو يشير بيده:

- شاهدت في الصباح سفينة عابرة في هذا الاتجاه. لا شك أنهم سيهاجمونا اليوم.
عادت "ليزا" تتناول طعامها في يأس مرير. لقد تحول الشك في جنون أبيها إلى يقين.
لم تظهر في الأفق أية سفينة منذ أن انجرفوا إلى هنا.

قبل أن تميل الشمس نحو المغيب صعدت "لورا" لتروى حديقته، و صعدت "ليزا" معها و هي تمنى مواجهة "كرم" لتكتشف له دليل خيائته و غدره، لعل هذه المواجهة تحطم غروره و جبروته فيتعاون معهم لإيجاد حل لهذه الكارثة.. بيد أن الكوخ كان خاوياً، فجلست تراقب ابنتها و هي تروى النباتات الصغيرة بحذر شديد. لقد أقتنعا "كرم" بأن النباتات لها أرواح مثلنا، تفرح و تحزن و تتألم مثل الإنسان، لكنها لا تبوح بمشاعرها أبداً إلا للإنسان الذي يحبها و يحترم كيانها. فأيقنت الصغيرة أن هذه النباتات أمانة في عنقها و سوف يعاقبها الله عقاباً شديداً إن أهملتها...

انصرفت الصغيرة إلى جدها بينما قبعت "ليزا" أمام الكوخ و في داخلها إصرار عنيف على المواجهة. تأملت جلود الأغنام المعلقة، تعجبت من أنها تستخدم جلود الأغنام و تأكل لحومها دون أن تتهم نفسها بالوحشية، بينما تشعر جيداً بوحشية و همجية مستخدمي جلود النمر. ربما لأن الأغنام ليست مهددة بالانقراض بينما النمر مهددة بالفناء و الإبادة. الأغنام حيوانات أليفة ترضخ للعيش في المزارع فتتكاثر بهدوء تحت رعاية الإنسان حتى أصبحت تُحصى بالمليارات، بينما النمر متوحشة شرسة، يصعب اصطيادها، من هنا يأتي ارتفاع أسعارها فيتهافت عليها الأثرياء. هذا ما دفع الإنسان إلى الصيد الجائر حتى أصبحت النمر على وشك الانقراض.. تعجبت عندما اكتشفت أن النمر بالرغم من وحشيته و جبروته عاجز تماماً عن حماية نفسه، بل ربما تكون وحشيته هي السبب الأول في انقراضه.. لو قبل بالحياة في هدوء و سلام لما كان هذا حاله...

عادت من تأملاتها على حفيف أوراق الشجر. انفتحت لتجد بجوارها جثة "سونا" غارقة في دماءها.. هبت تجرى في دعر و هلع إلى أبيها..

عادت إلى الكوخ في الصباح. لا بد من المواجهة، بيد أن الكوخ كان خاوياً مرة أخرى. عندما اكتشفت أن الشمع الذي أشعلته في الخارج بالأمس قد عاد إلى مكانه في الداخل أدركت إنه قد عاد بالأمس في وقت متأخر جداً ثم انصرف في الصباح الباكر هرباً من المواجهة.

جرت إلى أبيها لتخبره بما حدث، فقال "توني" و في عينيه بريق العناد:
- ليتنى استمعت إلى نصيحة "دامون". حذرنى كثيراً من غدر هؤلاء البربر.
اندفعت "لورا" مدافعة عنه بأسلوب طفولي بريء:
- "كرم" لن يغدر بنا.

سألته "ليزا" عما حدث في آخر مرة رآته، فقالت الصغيرة إنه أقام لها أرجوحة من الحبال المشدودة بين شجرتين و راح يلهو معها، و عندما ضحكت نظر في عينيها جيداً ثم

أطلق عليها إسم: صفاء . و عندما علمت منه بمعنى هذا الاسم وافقت عليه.. انتفض "توني" ثائراً:
- إنه يريد استعبادنا. يبدل أسماءنا حتى يشكلنا على هواه.

تركتمهم "ليزا" و ذهبت إلى شاطئ البحر محاولة ترتيب أفكارها في هدوء. شعرت بالخدر يسرى في جسدها تحت تأثير البحر الصافي الساكن في غموض مريب دون أى تموجات.. خط متعرج من الأزرق الفاتح يشق البحر إلى شقين. الخط الفاتح يذهب إلى ما لا نهاية و لا أحد يعلم إلى أين...

رأت من بعيد رجلاً قادماً نحوها، من خطواته أدركت أنه "كرم" فاستعدت للمواجهة. عندما اقترب اكتشفت أنه مبلل بمياه البحر، نافر العضلات. من أنفاسه اللاهثة المضطربة و الإرهاق الواضح في عينيه أدركت إنه بذل مجهوداً ضخماً فتأكدت من صدق تخمين أبيها . قالت هازئة:

- هل كانت عملية موفقة؟
سأل في ذهول:
- أية عملية تقصدين؟
- عملية القرصنة التي تقومون بها منذ يومين.
اكفهر وجهه برهة ثم قال في هدوء:
- نعم. كانت سفينة عابرة في اتجاه الشمال محملة بالماس. علمنا أنه كان من المقرر أن يُباع الماس لصالح عمليات تطوير الصواريخ العابرة للقارات، فقررنا الاستيلاء على السفينة و إعادة المجوهرات إلى أصحابها.
قبل أن يتركها صاعداً إلى كوخه صرخت قائلة:
- لقد تذكرك "توني".
ثم أخبرته بكل ما قاله أباه، فضحك قائلاً:
- "توني" سياسي محنك جداً.
- ماذا تقصد؟
- أقصد أنه كاذب.
- أبى لا يكذب.
ابتسم ثم قال ساخراً:
- معك حق. ليس كاذباً، لكنه يتذكر أشياء معينة و ينسى أشياء أخرى. و هذا أمر طبيعي جداً، السياسة فن القدارة.

قالت في حماس:
- السياسة فن الممكن لكنك لا تفهم دروب و دهاليز هذا الفكر الراقى المهذب.
قال في لا مبالاة و هو على وشك الانصراف:
- سأتناول العشاء في الموعد نفسه و في المكان نفسه.
انفجرت تسببه بأفزع السباب فنهرا بعنف إلى أن سقطت على الأرض، احتكت قدمها اليمنى بالصخور فسالت الدماء...

الشك اخطبوط ضخم يحكم قبضته عليها بأذرع الجبارة المخيفة. يمتص دماءها، يضغط عليها بشدة و عنف، راحت "ليزا" تتلوى بين براثن هذا الشك المريب إلى أن فقدت وعيها. أصبحت عاجزة عن التمييز بين الصادق و الكاذب، العاقل و المجنون.. "كرم" مجنون بحبه المحموم لزوجته الضائعة "جواهر"، بينما الشيوخة أفقدت "تونى" عقله إلى أن تاهت الذاكرة فى خضم المسئوليات الجسيمة...

عندما صعدت إلى "كرم" بالأمس حاملة طعام العشاء رأته جالساً على الأرض يستند بظهره إلى جذع شجرة ممدداً ساقيه أمامه فى إهمال.. شاردأً فى تفكير عميق دون أن يدرى أحد فيما يفكر.. عندما شعر بوجودها راح يتناول الطعام فى فتور.. اختفاء بريق عينيه يدل على انفشاع غضبه، الإرهاق واضح فى استرخاء عضلاته حتى أنه لم يستطع إتمام عشاءه من فرط الإعياء و ربما من أفكاره المتصارعة المتضاربة.. تنهد ثم قال فى هدوء:

- عندما خرجت من منزل والدك ذهبت إلى المهلى الليلي الذى ترقص به "جواهر" فلم أجدها. أخبرنى أحد العاملين أنها ذهبت منذ أسبوعين و لم تعد، لا أحد يعرف طريقها. قررت العودة إلى منزل والدك بعد أن شعرت عنده ببعض الهدوء و الراحة. فى طريق العودة التقيت بأخلص الأصدقاء، عندما علم برغبتى فى العودة إلى "تونى" قال لى مشفقاً: يجب أن تعرف الحقيقة حتى تعلم صديقك من عدوك، ثم أخبرنى بأن "تونى" قد باع زوجتى لأحد تجار الذهب الأثرياء، تمت الصفقة من خلال عقد عمل ينص على شرط جزائى قدره مليون دولار إذا تركت المنزل بدون إذن بينما كان الراتب لا يتعدى العشرين دولاراً فى الشهر.

عندما علمت "ليزا" منه بقية القصة قررت مواجهته بأبيها لمعرفة الحقيقة الكاملة، بيد أن "كرم" اختفى طوال اليوم فاشتعلت فى صدرها نيران الشك و الريبة و هى تقارن بين أقوال كل منهما بدقة متناهية لعلها تهتدى إلى الصواب.. معرفة الحقيقة هى الخطوة الأولى للخروج من هذه الورطة إلى أن يتحقق حلم العودة..

عاد "تونى" من الحقول. أخذ نفساً عميقاً و هو يتشمم رائحة الطعام فى اشتهاى بينما راحت "ليزا" تتأمله فى دهشة. عاد إليه بريق عينيه، عاد إليه حماسه، دبت القوة فجأة فى ذراعيه كأن الشباب الضائع سيعود من جديد.. سأل و هو يتناول طعامه فى سראהة:

- ألم يظهر أحد حتى الآن؟

أجابت بالنفى فى اندهاش:

قال "تونى" بصوت خفيض و هو يتلفت حول نفسه:

- يجب مراقبة كل شىء بدقة حتى نستطيع الوصول إلى الماس.

نظرت إليه فى دهشة كأنه إنسان آخر لم تعرفه من قبل. غريب هذا الرجل. حتى ابنتها

غريبة عنها.. شعر "تونى" بما يدور فى صدر ابنته فقال مؤكداً فى حماس:

- حمولة سفينة متوسطة تساوى مائة طن على الأقل، إنها مليارات من الدولارات إذا وصلنا إلى هذا الماس يصبح من السهل السيطرة عليه هو و أعوانه و إجبارهم على إنشاء قارب جديد. من يرفض التعاون معنا سنتركه هنا وحده إلى أن يموت جوعاً.

وافقت أباهما على رأيه و إن ترسخ في ذهنها أنها وحيدة في هذا الكون المترامى الفسيح الذى راح يتضاءل رويداً رويداً إلى أن أصبح في حجم ذرة رمل صغيرة تحت قدميها لا تساوى شيئاً.. كل شيء في هذا الكون يصبح تافهاً إذا ما قورن بالحقيقة.. أخبرت أباهما بما قاله "كرم"، فصرخ "تونى" قائلاً في ذهول:
- إما أن يكون صديقه كاذباً أو أن يكون "كرم" نفسه كذاب.

نظرت إلى أبيها متشككة فأقسم "تونى" مؤكداً أن "دامون" هو الذى باعها لتاجر الذهب الثرى، كما أكد لها أن الصفقة تمت بلا مقابل نتيجة لتبادل مصالح بين "دامون" و تاجر الذهب.

سألت "ليزا" متحدية:

- إذا كان "دامون" هو النحاس الحقيقى فلماذا لم تبلغ السلطات؟

طأطأ "تونى" رأسه قائلاً في هدوء:

- هذا مستحيل. لو فعلت ذلك سيوجه إلى "دامون" تهمة معاداة السامية. هل تريدن لى نفس مصير "الكونت برنادوت"؟. هل من الحكمة التضحية بمستقبلي و مستقبلك أنت في هيئة الأمم و مستقبل زوجك الذى كان يحلم بأن يكون ملحقاً عسكرياً من أجل هذا الخائن الحقير الفقير؟!.

انقبض قلبها في هلع. التفتت تبحث عن ابنتها صارخة بكل قوتها: لورا.. لورا.. هبطت الصغيرة من حديقتها تقفز بين الصخور في خفة و نشاط. تعلقنتها في صدرها و هى تقبض عليها بقوة و عنف مثلما يقبض الغريق على طوق النجاة ملهوفاً.. قال "تونى" مؤكداً في حزم:

- هروبه من مواجهتي أكبر دليل على نية الغدر و الخيانة.

فقال الصغيرة دون أن تعي شيئاً مما يقولون:

- شاهدته قبيل غروب الشمس يسير على الشاطئ حاملاً صندوقاً خشبياً ضخماً.
هتف "تونى" قائلاً:

- إنه الماس.

قالت "ليزا" مذعورة:

- أخشى أن يرحل بالماس وحده و يتركنا هنا دون سند.

ربت "تونى" على يد ابنته قائلاً:

- لا تقلقي. لقد أخذت عدتي لمواجهة هذا اليوم.

غابت الشمس. غرقت الجزيرة في الظلام. نامت الأجساد تحت وطأة الإرهاق و الإعياء بيد أن العقول لا ترضخ للراحة أبداً.. استيقظت "ليزا" أثناء الليل على صوت جلبة و صخب، انتفضت في هلع لترى أباهما جالساً بجوار بوابة الكهف خائر القوة، التراب يكسو جسده كأنه أحد عمال المناجم الذين تشاهد صورهم في أفلام السينما، بينما بريق عينيه تحت

ضوء القمر مثل القطط يدل على الإصرار و العناد. قال فى حماس قائد عسكري على وشك الحرب:

- استطعت حفر حفرة ضخمة بين أشجار الزيتون. وضعت فى القاع شحوم الحيوانات التى يحتفظ بها فى المخزن. ثم أخفيت الحفرة بفروع الأشجار. يجب عليك استدراجه إلى هناك حتى يسقط ثم نشعل النيران فى النباتات الجافة.
سألت "ليزا" فى خوف:

- من الواضح أن قبيلته لن تتركنا فى حالنا.
قال "تونى" سعيداً بمشاركة ابنته:

- رغم عنفهم لكنهم جبناء جهلاء. بمجرد سقوط زعيمهم و الاستيلاء على الماس سيسجدون لنا مثلما فعل أهالى جزيرة "تاهيتى" مع الكابتن "جيمس كوك". فى هذه الحالة سنجبرهم على إنشاء قارب جيد من خشب الأشجار ثم الإبحار بنا حتى نعود إلى بلادنا.
نامت "ليزا" تحلم بنظرات الذل و الانكسار فى عيون هذا القرصان الهمجى الذى يتعمد إذلالها حتى يخفى ضعفه و عجزه. من الواضح أنه السبب الرئيسى فى كل هذه المشاكل. إنه الخطر الوحيد على حياتهم. مجرد قتله يضمن لهم حياة سعيدة هائلة..

ما أن أشرقت الشمس حتى راحت تؤكد على ابنتها بأن تخبرها فوراً بمكان "كرم" بمجرد أن تراه، كما حذرتها من الاقتراب من كوخه أو من الحديقة التى يدعى أنه وهبها لها.. ارتجفت الصغيرة من هذه التحذيرات المخيفة.. برقت عيناها فى دهشة و هى ترى أمها و جدها يجوسون فى أرجاء الجزيرة بحذر، يتأملون الرمال، يقبلون الصخور فى انتباه شديد.. عندما سألت عن السبب أجاب "تونى":
- قد يظهر فى الجزيرة رجال و نساء كثيرون، الشراسة فى طبعم، الغلظة فى قلوبهم. لذا يجب الابتعاد عنهم تماماً.

بعد الغداء انهمك "تونى" فى قطع فروع الأشجار الصلبة ثم غرسها فى الأرض حول كهفهم محاولاً تحصين المكان، بينما انهمكت "ليزا" فى ربط الحبال بفروع الأشجار الصغيرة لتكون مثل الكرياج فى مواجهة الأعداء. فى أثناء ذلك أتاها صراخ "لورا" ملهوفاً:

- القارب يعود.. القارب يعود..

(12)

راحت "ليزا" تتأمل القارب فى سعادة و نشوة و هو يتهدى على الأمواج فى هدوء و أمان، مكبلاً بالحبال الغليظة فى الصخور.. نجح "كرم" فى إصلاح الكسور البسيطة التى حدثت ثم وقف بينهم قائلاً فى هدوء و ثبات:

- عندما تصبح الرياح مواتية و التيارات مناسبة سنبدأ فى الإبحار فى اتجاه بلادكم بشرط واحد.

سأل "تونى" فى ذهول عن الشرط، فقال "كرم" مكفهر الوجه:

- بعد أن أعيدكم سأعود بالقارب وحدى، و أرجو ألا يعترضنى أحد.

صرخ "تونى" جاحظ العينين:

- تريد الحصول على الماس كله وحدك.

تساءل "كرم" فى ذهول: أى ماس؟.. ثم انفجر ضاحكاً فى سخريّة:

- ألا يكفيك كل هذه الثروات؟.. على كل حال لا يوجد هنا ماس و لا أموال.

سأل "تونى" فى تحد:

- لماذا ستعود وحدك إذن؟

- لأننى كما قلت لك من قبل أرفض الحياة فى هذا العالم الهمجى الذى يعبد القوة و يقدر المال.

سألت "ليزا" فى فضول:

- و لماذا ستعيدنا لبلادنا؟

نظر "كرم" إليها فى استنكار ثم قال جاحظ العينين:

- من أجل "لورا" فقط. أنتم تستحقون القتل و التمثيل بجثثكم، لكن "لورا" لا ذنب لها سوى أنها ابنتكم.

استندت "ليزا" إلى جذع شجرة استعداداً لحوار طويل فصرخ "كرم" قائلاً:

- حملوا القارب بصناديق الطعام الموجودة فى المخزن، استعدوا للإبحار فى أية لحظة.

صعد "كرم" إلى قمة الجبل و هو يراقب السماء و البحر بحذر شديد بينما انهمك "تونى" فى تحميل الصناديق الخشبية و هو يفكر فى الماس الذى ضاع من بين يديه.

ضمت "ليزا" ابنتها و هى تهنئها بالعودة القريبة، بيد أن الصغيرة عندما شعرت بقرب الرحيل انقبض قلبها فى رهبة، انصرفت إلى قبر أبيها و هى تتخيل حال الجزيرة بعد

رحيلهم.. صمت ثقيل، خراب، رياح تصفر، أمواج تزمجر، نباتات جافة تتكسر دون أن تجد من يرعاه، في وسط هذا الخراب يرقد أبوها وحيداً دون أنيس، لن يكون هناك أحد ليضع الزهور فوق قبره و يصلى له...

قبيل الغروب عندما صرخ "كرم" قائلاً: حان موعد الإبحار، اصطحبت "ليزا" ابنتها من يدها في اتجاه القارب فراحت الصغيرة تتعثر في الطريق و هي تتلفت خلفها بعد كل خطوة تتأمل القبر خافقة القلب من عالم الموت البغيض. عندما بدأ القارب في الإبحار جلست في المؤخرة و في عينيها بريق خاطف فاجع ممزوج بالدهشة كأنها أدركت الآن فقط أن أباه لن يعود أبداً.. بينما كان "تونى" رابضاً فوق السطح يراقب كل التحركات محاولاً تحديد الاتجاه بدقة أملاً في العودة إلى الماس. في حين قبع "ليزا" في كبينتها خوفاً من مواجهة هذا البحر الغادر تحت قيادة قرصان مجنون يتربص به شيخ عجوز عنيد..

عندما ابتعد القارب قليلاً بدت الجزيرة من بعيد كأنها نقطة صغيرة داكنة. رأت "لورا" دخاناً أبيض يتصاعد من الجزيرة يشق عنان السماء الشفافة الصافية، تمثل لها الدخان في صورة أبيها الذى راح يحوم حول القارب قلقاً على مصير ابنته، شعرت بيده الدافئة على كتفها، التفتت في لهفة فرأت "كرم" يجلس بجوارها، فانخرطت في بكاء عنيف لاهثة الأنفاس...

بعد أن غابت الشمس و احتل القمر مكانها راحت "ليزا" تتأمل الأشعة الفضية المنسابة فوق صفحة البحر الرائق الشفاف و هي تفكر في مستقبلها و مستقبل ابنتها. طبيعة عملها تقتضى السفر المستمر و الترحال إلى كل مكان و في أية لحظة حتى تتم عملية المراقبة و التفتيش على شئون المحميات الطبيعية و الغابات بدقة.. بعد موت زوجها و بعد أن أصابت الشبخوخة أباه، من سيرعى الصغيرة فى غيابها؟! لن أتخلى عن واجبي للحفاظ على الحياة فوق سطح هذا الكوكب الجميل.. لا يوجد حل سوى مدرسة داخلية راقية و هناك سينكفلون بكل شيء...

شعرت بشخص ما بجوارها، التفتت لتجد "تونى" يرقبها بنظراته الحانية، تنهدت و هي تشير إلى البحر و السماء قائلة:
- بالرغم من كل هذا الصفاء إلا أن الغدر كامن فى كل شيء إنتظاراً للحظة المناسبة.
بعد أن شعر "تونى" بقلق ابنته قال فى تحد:
- لن أسمح لأى أحد أن يغدر بابنتى و حفيدتى.
نظرت إليه متسائلة، فقال بصوت خافت و هو يتلفت حول نفسه:
- لقد احتفظت فى كابينتى ببعض الأحجار من أرض الجزيرة، كما احتفظت بأحد طيور النورس. كل هذه الأشياء الصغيرة ستعيدنا إلى الجزيرة للحصول على الماس.
قالت فى يأس:
- ليت كل مخاطر الدنيا تتركز فى الماس.
قال و هو يرفع إصبعه فى وجهها مهدداً:

- لقد حذرني "دامون" كثيراً و هو يقول لا يوجد فى الدنيا كلها ما هو أخطر من المال فى يد هؤلاء الأوغاد.
ثم أكمل نادماً:
- ليتنى استمعت لنصحه.

تركته متجهة إلى المطبخ لإعداد العشاء مندهشة لتفكير أبيها الذى تحول إلى الماس فقط بينما لم يحاول أبداً كشف أكاذيب "كرم" فى اتهاماته الخطيرة. الحقائق و المعلومات الدقيقة أهم بكثير من كل أموال الدنيا. الليلة سيلتقى الاثنان معاً على العشاء و ستعرف الحقيقة كاملة...

التفوا جميعاً حول المائدة الخشبية يلوكون الطعام دون أدنى متعة أو تذوق، راحت "ليزا" تتبادل النظر فى صمت مع أبيها بينما كان "كرم" شاردأً تائهاً كأنه إنسان معتوه غارقاً فى الأوهام و أحلام اليقظة المستحيلة، بعد أن جاهدت كثيراً للسيطرة على أعصابها النافرة قطعت الصمت قائلة فى هدوء:

- ما الذى يجعلك واثقاً إلى هذا الحد فى صحة اتهام صديقك لأبى؟

قال "كرم" مبتسماً فى سخرية من الأحلام الضائعة:

- إنه الشخص الوحيد الذى ساندنى فى بلادكم دون أى مقابل، هو الذى عاوننى على إيجاد عمل بعد أن أقنعنى بأنه من الممكن تعويض الإبن المفقود، غرس فى الأمل فى حياة أمنة مشرقة فى بلادكم.

سألت فى تحد:

- من هو هذا الصديق، أرجو أن تواجهه بأبى.

قال "تونى" مبتسماً بأسلوب صياد ماهر:

- إياك أن تدعى موته.

قال "كرم" و هو ينظر إليه فى تحد:

- صديقى يعرفك جيداً، إنه "دامون" الذى إشتراك معك فى تصدير الدواء المغشوش إلينا فمات إبنى.

هب "تونى" فى غضب:

- مستحيل أن يفترى على "دامون" بمثل هذه الإتهامات، إنه صديقى الوفى. أنت كاذب حقير.

صرخت "لورا" فى فزع، التفت إليها "كرم" ثم قال فى إهمال:

- أنا لا أكذب، و لا يهمنى معرفة الحقيقة الآن.

صرخ "تونى" و هو يشير إليه بإصبع الاتهام:

- هذا دليل آخر على كذبك و خيانتك.

وضعت الصغيرة يديها على أذنيها خوفاً من الصراخ، إنتفض "كرم" واقفاً:

- أنا لا أريد سوى أن تتركونى أعيش وحدى فى سلام بعيداً عن كل هذه الخبائث القذرة. أليس هذا من حقى.

هم "كرم" بالانصراف فصرخ "تونى" و قد اشربت كل عروقه:

- كذاب خائن.

فقال "كرم" بهدوء:

- لن أَدافع عن نفسي لأننى لست متهماً بشيء، لن أشارك معكم فى مهاترات لا طائل من ورائها.

تكوّمت الصغيرة تحت المنضدة خوفاً من أن يصل الشجار بينهما إلى حد الاشتباك بالأيدى فيتحطم القارب و يغرقون جميعاً، بينما قال "تونى" مندهشاً جاحظ العينين:
- مستحيل أن يفترى على "دامون". لقد بلغ إخلاصه لى لدرجة أنه منعى بشدة من تركيب العدسات اللاصقة فى بادئ الأمر، طلب منى الانتظار حتى يعرف الأطباء أثارها الجانبية و يطورونها، و كان محقاً فيما قال، و بعد عدة سنوات سمح لى بتركيب العدسات المطورة الجديدة، هل معقول أن يفترى على مثل هذا الصديق الوفى؟.

رمته "ليزا" بنظرات الذعر و القلق. اجتمع الاثنان معاً على العشاء و لم تستطع الوصول إلى الحقيقة. يبدو أنها لن تصل إليها أبداً. "تونى" لا يفكر فى شيء سوى الماس. "كرم" يرفض البحث عن الحقيقة مهما كانت الحقيقة فى صالحه أو ضده، يرفض مجرد الدفاع عن نفسه كأنه اعتاد القهر و الظلم فى وطنه. بينما "دامون" يعتقد أنه لا يجب التعامل مع هؤلاء الأوغاد إلا فى حالة الضرورة القصوى فقط. فأين السبيل لمعرفة الحقيقة؟.. الأرض تحت أقدامها تهتز، القارب يشق البحر بقوة و عنف، و لا أحد يعلم إن كان سيصل بهم إلى بر الأمان أم إلى جزيرة معزولة موحشة، أم سيجرفهم التيار إلى عالم البحر الغامض حيث أعماق سحيقة بلا قرار، و أمواج هادرة تفتك بالجميع...

بيد أن القارب وصل إلى بر الأمان فى خلال يومين. فتحت الميناء أحضانها لقارب "تونى" الذى يعتبر أحد الأشخاص المهمين جداً. اعتصم "كرم" فى حجرة القيادة بعد أن عاونهم على حمل حقائبهم. مدير الميناء استدعى "تونى" لاستقبال مكالمة تليفونية عاجلة. كان صديقه الودود "دامون" الذى علم بوصوله فى نفس اللحظة بالرغم من وجوده فى "تل أبيب". كان يريد الترحيب و الإطمئنان لإثبات صداقته و إخلاصه لـ "تونى" الذى قص له كل ما حدث بكلمات قصيرة.

أكد "كرم" على "ليزا" ألا يعترضه أحد. قبل الصغيرة من جبينها، طلب منها أن تذكره دائماً، و ألا تنسى أبداً أنه أنقذهم جميعاً من أجل صفاء عيونها فقط.

أبحر القارب بينما كانت "لورا" على الشاطئ تلوح له مودعة بيدها اليمنى، و تقبض بيدها اليسرى على الطوق الخشبى الذى صنعه لها. بيد أن التوربيد كان قد إنطلق من أحد السفن الحربية القريبة، فانفجر القارب، و طففت بقع الدم الأحمر على صفحة المياه الزرقاء الصافية...

تمت بحمد الله.

كتب للمؤلف.

- أفلاطون فى عصر الفضاء.
- زهرة الصحراء.
- القرصان.
- 12 قصة مهاجرة.
- أفكار متناقضة.
- الحلم.
- كليوباترا، أميرة الحب و الحرب.
- الطاعون.
- قرطاج.
- أساطير الهنود الحمر.
- أساطير الإغريق.
- حضارات أمريكا القديمة.
- إسكندر، عبقرى الحرب و الفكر.
- يوليوس قيصر، العسكرى و السياسى.
- رسائل فلسفية.
- التسامح.
- مقدمة فى الفينومينولوجيا.
- قبل الإعدام.
- تفسير الأحلام.
- أكلة لحوم البشر.

القرصان

في هذه الرواية.

قال "توني" في قلق:

ملاحه شرقية، اسمه عربي و أنا لا أثق أبداً في هؤلاء البرابرة.

نظرت "ليزا" إلى أبيها في شك. قد يكون همجياً بربرياً لكنه يتحدث لغتنا بطلاقة تامة و من الممكن التفاهم معه.

الفصل الثاني.

تعجبت عندما اكتشفت أن النمر، رغم وحشيته و جبروته، عاجز تماماً عن حماية نفسه. بل ربما تكون وحشيته هي السبب الأول في انقراضه... لو رضى بالحياة في هدوء و سلام ما كان هذا حاله.

الفصل العاشر.

I ISBN 9789773997144



9 789773 997144

